غَيَابَةُ الجُبِّ

أسامة هشام

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين, وبعد ..

كلّ الذي يحدث في هذه الثورة السورية, لا أجد فيه غريبا ولا جديدا .. الحقد النصيري, والتعذيب الوحشي, والاستهانة بالمقدّسات الإسلامية, والاعتقالات, واحتباس الناس كرهائن, والاستهتار بالمواطن, والكذب الإعلامي الوضيع, وإفساد القيم والمثل الأخلاقية في صفوف الشعب ... عشناه وشهدناه منذ أكثر من أربعين سنة.

هي حرب ضد السوريين عامة والمسلمين خاصة بدأها حزب البعث منذ الستينيات من القرن الماضي واستأنفها المجرم المقبور حافظ الأسد, وتحولت من حكم الحزب إلى حكم العائلة, الغاية منها نهب خيرات البلاد إلى فئة صغيرة مستفيدة, وتدمير سوريا عسكريا واقتصاديا وأخلاقيا, وتنفيذ ما عجزت إسرائيل عن تحقيقه على مدى سبعين عاما, ويكملها الآن وريثه وتلميذه الذي فاق أستاذه في الإجرام, الطاغوت بشار لعنة الله عليه وعلى أبيه في الدنيا والآخرة.

كنت أعتقد أن تجربتي مرّت وانقضت وأصبحت في ذمّة التاريخ, وكنت أحجم عن الحديث عنها بسبب استمرار النظام البوليسي القمعي الإرهابي في سوريا, وما كنت أحب نقل معاناتي إلى الناس تجنبا لإزعاجهم بالقَصص الحزينة, وكذلك فإن هذا الحديث يثير في نفسي شعورا مريرا بجرح قديم لا أحب أن أنكأه, حتى أن أولادي لا يعلمون الكثير من تفاصيل تلك المحنة لأني لم أكن أتحدث عنها, ورأيتُ أن غيري كتب في هذا الوضوع وكفّى ووفّى, فقد انقضت المحنة وحصل الذي حصل, ولارجوع في التاريخ, واحتسبتُ أجري عند الله.

أمّا وقد أصبح الجهاد على أسنّة الرماح, واتّسعت رقعة الحرب على الإسلام, واكتشفتُ أن كثيرا من الناس يجهلون تماما ما كان يحدث في غياهب سجون الظالمين, بل ويترحمون على المقبور حافظ, وكثيرا ما رأيتُ ملامح الدهشة والعجب ممن رويتُ لهم بعض الفصول من روايتي الرهيبة, فقد رأيت أنه من واجبي أن أنشر تجربتي للناس, لعلّه يكون فيها شيءٌ من الدرس والموعظة, وكشفٌ لخبايا هذا النظام المجرم, وجهادٌ بالكلمة.

أسردُ في هذه الرواية الحقيقية بعضَ القَصص التي عشتها خلال خمسة عشر عاما في تدمر, وسأنقلها بأمانة, ولكني سأرسمُها بشكل لوحات متفرقة حسب الخواطر التي تردني, ولايشترط فيها التسلسل الزمني الدقيق لأن القصص كثيرة ولم أعد أذكر أيها قبل أو بعد بعض.

وسأستخدم المصطلحات التي كنا نستعملها ونتداولها في السجن مثل: السخرة, الدوسير,المعلّم, البلدية, المسؤول الصحي, الحارس الليلي, رئيس المهجع .. وسأعلق في شرح بسيط على كل واحدة في حينها.

يوم الاعتقال

كنت في مع زملائي في جولتنا الصباحيّة المعتادة في المستشفى حين خرجنا من إحدى غرف المرضى لنتابع في الغرفة التي بعدها, فاستوقفني رجل مُريب وقال أريد أن أتكلم معك.

ظننته أحد أقرباء المرضى ويريد أن يسألني عن حاله, فأجبته: "نعم, ولكن بعد أن أنهي جولتي على المرضى".

فأمسكني من يدي بغلظة - ولمحت مسدّسا على خاصرته- وقال: "بل الآن".

عرفت بأن في الأمر مشكلة, ووقع المكروه.

في الحقيقة كنت أسمع في تلك الفترة عن المداهمات والملاحقات المجنونة للشباب الإسلاميين, والحملة الشرسة للاعتقالات, ولكني لم أكن خائفا, ولم أحاول الخروج من البلاد مع أنه كان بوسعي ذلك, صحيح أني كنت أصلي, ولكن ليس لي نشاطات أو معرفة بحزب الإخوان المسلمين, ولم أكن أعلم أن الحرب ضد الإخوان كانت الشماعة التي علق عليها حكم البعث كل جرائمهم, وأنها كانت حربا ضد الإسلام تحت شعار محاربة الإخوان (كما هو الحال تماما في عهد الرئيس الابن: حرب على الإسلام تحت شعار محاربة الإرهابيين والعصابات المسلحة, إن التاريخ يعيد نفسه).

فورا سألني الرجل: "أين حسام؟".

كانت مفاجأة ثانية!

إذا هو يريد حسام!

كان أخي حسام يدرس الطبَّ أيضا, ولأجل الأقدار كان دوامُه حسب ما هو مقرر في برنامج الكلية أن يكون في نفس المشفى الذي أعمل به, وجاء هذا المخبر يبحث عنه, وربما قادته الكنية المشتركة إليّ .. فسبحان الله.

المفاجأة أربكتني, فقلت له لاأعرفه, قال حسنا, امض معي.

أراد أن يخرج بي فورا من المستشفى, وأنا في اللباس الطبي الأبيض الرقيق (وكنا في كانون ثاني), قلت له أغير ثيابي وألبس ثيابي الشتوية أولاً, فوافق على مضض.

خطر ببالي أن أحاول الهرب, ولكن بالتأكيد المشفى مطوق وسوف يطلقون الرصاص عليَّ ويقتلونني كما أطلقوه على زميلي مخلص قنوت منذ عدة أيام.. مغامرة لا داعي لها!

مخلص من مينة حماة, كان طبيبا يختص في قسم الجراحة في مشفى المواساة, داهمته قوات المخابرات في المشفى, فحاول الهرب, فأطلقوا عليه النار وأصيب بعدة طلقات ولكنه لم يقتل, واحتجزوه في سجن المشفى للعلاج.. ثم اقتيد إلى تدمر وفي رجله عرجٌ بسبب إصابته.

عاود السؤال مرة ثانية بإلحاح, وكأنه متيقنٌ أني كذبتُ عليه "ألا تعرف حسام؟".

فكرت في نفسي أنه سوف ينكشف أمري آجلا أم عاجلا وستصبح المشكلة أكبر, قلت له: "نعم إنه أخي".

قال إذن "لماذا أنكرت؟" قلت له "ارتبكت" قال "أين هو الآن؟" . "قلت لاأدري".

المهم أني ركبت في سيارة عادية (بيجو), ومضوا بي, وبعد أن قطعنا مسافة, استدار نحوي ولف رأسي بعصابة سوداء غطت عيوني فلم أعد أدري أين نسير.

وصلنا.. أنزلني من السيارة, وأمسك بيدي, ومشى بي, وأنا مغمض العينين, ولا أعرف إلى أين نسير, وصلنا إلى درج, نزل فنزلت معه وأنا أخشى أن أقع, شعرت بأني أعامَل كمجرم منذ اللحظة الأولى.

فتشوني, أخذوا كل شيء. المفاتيح والنقود والساعة. فتحوا باب حديديا, وقالوا ادخل.

دخلتُ, فوجدت أنها غرفة كبيرة (مهجع), مكتظّة بالموقوفين, جالسين على الأرض متجاورين مثل أسياخ الكباب, تحتهم بطانيات عسكرية, لحاهم طويلة, وبعضهم طويلة جدا.

جلست قرب الباب, آخر مكان.

كان جانبي شاب رقيق, حديثُ السن يبدو أنه طالب مدرسة, استأنست به. قلت له: أين نحن؟

- أمن الدولة.
- - ما اسمك؟
- عبد الرحمن.
- وكم بقي لك هنا؟
- عشرة أيام.

- فأحسست بدهشة, وقلت بسذاجة: عشرة أيييييييييييييييام وأنت جالس على هذا الحال, يا للهول؟
- نعم, وذلك الرجل مقابلك له ثمانية أشهر.
- نعاااااااااااااااام؟ وأحسستُ بإحباط شديد.

بعد قليل حضر سجان ومعه ربطة خبز, فتحها وبدأ يضع أقراص فلافل في كل رغيف ويوزعها على الموقوفين, لم آكلها , وهل هذا وقت الطعام؟ قال لي عبد الرحمن: "خذها واحتفظ بها, سوف تحتاجها", قلت له "بل خذها أنت إن شئت" فأخذها.

لم أعد أعرف الوقت.

فُتح الباب وقالوا أسامة إلى الخارج.

تفاءلت, ربما علموا أنهم أخطؤوا بإحضاري وسوف يطلقون سراحي.

أدخلوني إلى مكتب وأنا مغمض العينين, وقال لي المحقق: "أريدك أن تتصل بحسام, وتطلب منه الحضور لعندك إلى المستشفى... أنت تعرف أن الواجب الوطني أهم من القرابات, ومصلحة الوطن فوق كل شيء.. نحن لا نريدك أنت, بل هو, وأنت ستعود فورا إلى مشفاك".

لم أكن أستطيع الرفض في مثل هذا الموقف, فقلت له "لن أجده في مثل هذا الوقت, فهو حتما لايزال في الكلية". فسكت, واستدعى السجّان وقال "أعده إلى مكانه" فحمدت الله أن صرفه عني, وكفاني شر الإيقاع بأخي.

إذا وقع القدر عمي البصر:

بعد ساعات فتحوا الباب ثانية وأخذوني خارج الفرع, وأركبوني سيارة مع عناصر مسلحين, مشينا قليلا ثم قال قائد الدورية: "دلـَّنا على بيتكم!".

بدأت تدور الأفكار برأسي بسرعة, وكان عليّ أن أتخذ قرارا سريعا, ماذا أفعل؟ يريدونني أن أقودَهم بنفسي إلى أخي ليرموا به إلى التهلكة, ما هذا الاختبار يا إلهي؟.

فكرتُ أن الرفضَ في هذا الموقف سيكون بعده ما لايحمد عقباه, فاخترت الحيلة.

قررتُ أن أرشدهم إلى بيت جدتي بدل بيتنا, فهذا أسلم الحلول, وأتجنبُ المواجهة معهم, ولن يجدوه هناك, وسأدّعي أنه مقيم عند جدته, ولكن إذا أخبرتهم جدتي أنه ليس مقيما عندها

فسوف تكون ورطة كبيرة, نعم سوف يكتشفون كذبتي, ولكن المهم أن لايقبضوا على حسام ثم ليكن بعدها ما يكون!

أرشدتـُهم إلى البيت, كانت سيارة أبي, والتي هي بحوزة حسام, جاثمة عند مدخل البناء.

لم أشاهد السيارة بتاتا, ولو شاهدتـُها لربما كان أمرٌ آخر, ولكن إذا وقع القدر عمِيَ البصر, وليقضيَ الله أمرا كان مفعولا.

اكتشفتُ أنه كان معنا سيارات أخرى من المخابرات ممتلئة بالعتاصر المدججين بالسلاح, وكأنهم ذاهبون إلى اقتحام قلعة, وكانوا يتكلمون مع بعضهم باللاسلكي, ولم ينزل من السيارة التي كنت فيها أحد, ثم قال أحدهم متحدثا باللاسلكي مبشرا رئيسه: "لقد قبضنا على الهدف سيدي"!.

نعم قبضوا عليه.. لأجل القدر العجيب كان حسام عند جدته, كان هذا أسوأ يوم في حياتي.. ولا أزال إلى يومي هذا ألومُ نفسي.

وقبل المضي في قصتي هذه لابد من إلقاء الضوء وبشكل مختصر على أهم الأحداث التي حصلت في سوريا, والتداعيات التي فجرت الوضع, وأوصلت إلى ما نحن عليه.

بداية الشرر

حوادث سوريا الدامية بدأت منذ ثورة 8 أقذار (آذار) 1963 وتولي البعثيين السلطة في سوريا, ثم تتابع الانقلابات فيما بينهم, تخللها صعود حافظ الوحش في السلم السياسي (تذكر المراجع التارخية أن أباه سليمان كان شرس الطباع فأطلق عليه اسم سليمان الوحش, فعرفت عائلته ببيت الوحش, وقد أثبت التاريخ أنه اسم على مسمى) وصولا إلى مركز وزير دفاع ثم استيلائه على رئاسة الجمهورية عام 1970- 1971.

وأنقل عن الويكيبيديا, الموسوعة الحرة هذا النص.

"وبعد أن استولى حزب البعث على السلطة في انقلاب 8 مارس 1963 فيما عرف باسم ثورة الثامن من آذار، أعيد حافظ إلى الخدمة من قبل صديقه ورفيقه في اللجنة العسكرية مدير إدارة شؤون الضباط آنذاك المقدم صلاح جديد، ورقي بعدها في عام 1964 من رتبه رائد إلى رتبة لواء دفعة واحدة، وعين قائدًا للقوى الجوية والدفاع الجوي .

وتمكن في 16 نوفمبر 1970 بمساعدة من القطع الموالية له في الجيش من الانقلاب على صلاح جديد ورئيس الجمهورية نور الدين الأتاسي وسجنهما مع العديد من رفاقهم وذلك فيما يعرف الحركة التصحيحية.

تولى منصب رئاسة مجلس الوزراء ووزير الدفاع في 21 نوفمبر 1970 ، ثم ما لبث أن حصل على صلاحيات رئيس الجمهورية في 22 شباط / فبراير 1971 ليثبَّت في 12 آذار / مارس 1971 رئيسًا للجمهورية العربية السورية لمدة سبع سنوات بعد إجراء استفتاء شعبي ليكون بذلك أول رئيس علوي في التاريخ السوري."

حوادث الدستور:

عام 1971, تم تعديل الدستور في دقائق - كما حدث مع ابنه بشار- حتى يناسب مقاسه, فعدلت فيه مادتان:

- شرط المدة, إذ كانت مدة الرئاسة أربع سنوات فمددت إلى سبعة.
- شرط الدين, إذ كان حافظ من الطائفة العلوية, وهو خلاف الدستور الذي ينص على وجوب كون الرئيس سنيا.

شاعت الأخبار يومذاك أن حافظا أصبح سنيا, ونطق بالشهادتين, وأدى فريضة الحج, وقام الإعلام السوري (المعروف بكذبه منذ ذلك الحين) بعرض أدائه لمناسك الحج.. وزاد في النغم طنبورا, فئة علماء السلطان الذين كانوا يُشيدون بإيمان المقبور ويشهدون له بالتقوى والصلاح, وتراهم في الأعياد الإسلامية يتباهون بصحبة ذلك الزنديق, الذي أجاد حرفة النفاق وورثها لأبنائه, فكان مفتي الجمهورية آنذاك, أحمد كفتارو, يظهر في كل عيد وهو يتأبط ذراع حافظ, ويقول في خـُطبِهِ: " يقولون عن الرئيس ليس بمؤمن... العما ضربون ما شافوه عم يصلي**!**". نعم.. هكذا كان حافظ من مكرِهِ ودهائِهِ يـُبدي اهتماما بالطقوس والمناسبات الإسلامية, ليـُخفي وراءها عداوته الكامنة في قلبه تجاه الإسلام وأهله, ويرتكب جرائمه في صمت.. وهكذا فعل الجرو اللاحق من بعده, وهذا حال المللِ الباطنية ذاتِ الوجهين.

بعد تولي حافظ السلطة, بدأت الملاحقات البوليسية والاعتقالات, وبدأ الشكل الإرهابي لدولة البعث يتبلور, وكان من أحد المواقف التي أثـَّرت في نفسي, اعتقال أستاذنا الرياضيات أثناء إعطائه الحصة لنا, وسحبه من المدرسة أمام أعين طلابه.

بعد تعديل الدستور قامت مظاهرات تهتف ضد النظام وحزب البعث, عرفت بأحداث الدستور.

في تلك الفترة ببكنتُ أسمع أصوات هتافات بعيدة فخرجت من البيت, ودفعني الفضول أن أتابع مصدر الأصوات إلى أن وصلت إليها.

كان حيا شعبيا, وكان المتظاهرون أولادا من طلبة المدارس, كنت أراقب.. حين برز جندي مدجج فجأة, يلبس خوذة ويحمل رشاشا ويتقدم باتجاهنا ويفتح النار!

تفرق الجميع واختفوا من الطريق, أما انا فقد هرعت إلى أقرب محل واستدت إلى جداره, والتصقت بالحائط, أقبل بعدي شاب آخر, ووقف بعدي, ولكنه لم يكن محميا تماما, نظر إلي وابتسم, ولكنها كانت الابتسامة الأخيرة, فما هي إلا لحظات حتى وقع أمامي على الأرض, للوهلة الاولى لم أدر ماذا حدث, بعد ثوان امتلأت الأرض تحت رأسه ببركة من الدم.

وقع حينها عدد من الشهداء.

تحدث الناس أنهم في تشييع أحد الشهداء ربما ذلك الشاب أو غيره, أطلق الرصاص عليهم, فرموا التابوت وتفرقوا.. تخيلوا كيف أن التاريخ يعيد نفسه! (إطلاق النار على الجنازات).

أبي والاستعمار الفرنسي

ولد أبي في دوما (قرب دمشق) وعاش بداية صعبة في حياته, فقد نشأ يتيما, وجاهد كثيرا في مسالك الحياة, وانتقل في سنوات المدرسة إلى دمشق حيث عايش فترة الاستعمار الفرنسي, التي ألهبت شعوره وحماسه ضد الظالمين, وكثيرا ما كان يروي لنا قصص صراع الشعب السوري مع المستعمر الفرنسي, وكيف كانوا يرددون في مظاهراتهم النشيد الوطني العريق:

يا شباب العالم المحمدي ينقص الكون شباب مهتدي

فأروهم دينكم ليهتدي دين عقل وضميـــــر ويد

كانت مدرسة التجهيز في دمشق مركز انطلاق المظاهرات, ولم تحصل حادثة واحدة في عهد الاستعمار الفرنسي ان اقتحم الجنود المدرسة لما لها من تقدير واحترام, بل كانت حين تمر الجنازة أمام الجندي الفرنسي, يقف باستعداد ويرفع قبعته احتراما للميت.. هكذا كان حال المستعمر الفرنسي الصليبي, فأين فرنسا المستعمرة من آل الأسد.. أبطال الصمود والتصدي!

أنقل كفاح أبي ضد الفرنسيين كما كتبها في مذكراته:

عام 1942-1943: إضراب التجهيز في ذلك العصر كان يعني إطلاق شرارة الإضرابات والمظاهرات في كل سورية, حيث كانت هذه المدرسة تجسد الكفاح الوطني وتقوده, في الوقت الذي لم يكن للجامعة السورية (جامعة دمشق الآن) أي دور نظراً لضآلة حجمها وقلة عدد طلابها, بينما كانت مدرسة التجهيز تضم المئات من الطلاب الشباب.

العام الذي كنتُ فيه في الصف السادس كان حافلا بالإضرابات والمظاهرات, ففي إحدى المرات خرجنا بمظاهرة صاخبة فإذا بالشوارع المحيطة بالمدرسة مطوقة برجال الأمن للحيلولة دون وصولنا إلى مركز المدينة. كان من الطبيعي أن تنشب معركة بيننا وبين الدرك الذين كانوا يسدون الطريق مابين حديقة البرلمان وبناية "كسم وقباني". كان سلاح الطلبة الحجارة التي مصدرها الأراضي الزراعية المحيطة بالمدرسة. أما الدرك فكانوا بهراواتهم وخوذاتهم الحديدية.

كنت في ذلك العمر مشتعلا حماسا كالكثير غيري, وكنت أعشق المواجهات النضالية, وكنت أعددتُ لمثل هذه المواجهات بالسرِّ عن والدتي "مقلاعاً" لقذف الأحجار. وكانت والدتي تخاف عليّ لأني كبيرُ أولادها وأملُها, اليتيم الفقير.. وهكذا ولأول مرة في حياتي شاركتُ في معركة بالأحجار ضد الدرك باستعمال مقلاعي, وقد أبليت بلاء حسناً.

كانت المعركة طويلة واستمرت ساعات وأخيرا اضطررنا للتراجع نحو المدرسة, فكنا نتقهقر مع استمرارنا في المحاجرة, وكانت عناصر من الشرطة تلاحقنا, وكنت من أواخر الطلبة الداخلين إلى حرم المدرسة, وكان أحد الطلبة الكبار "فوزي" يقوم بسحبنا بسرعة إلى الداخل خوفاً علينا ثم أغلق الباب في وجه الشرطة. ما إن أغلق الباب خلفنا حتى دوت طلقات نارية من الخارج, وإذ بالدماء تسيل وراء الباب من الداخل مخلّفةً الطالب الشهم "فوزي اللحام" شهيداً ليلتحق بقوافل الشهداء التي لم ولن تتوقف على مر الأيام.

كان مقتل طالب على أيدي رجال سلطة المستعمر حدثاً كبيرا يهزُّ سورية, شُيِّع الشهيد بجنازة ضخمة تحولت إلى مظاهرة طافت شوارع دمشق, والهتافات تشق عنان السماء بسقوط الاستعمار وبترديد: لا إله إلا الله والشهيد حبيب الله. (لم يطلق أحد النار على الجنازة.. عجيب! هذا في عهد فرنسا).

فوزي القاوقجي برواية أبي –رحمه الله-:

من الضباط الذين كانوا في الجيش الفرنسي, ثم التحق برجال الثورة ضد فرنسا وأصبح فيما بعد من أعظم المجاهدين. قاتل في سورية وحكم عليه بالإعدام من قبل الفرنسيين, وقاتل في فلسطين وحكم عليه بالإعدام من قبل السلطات البريطانية, وشارك في العراق في ثورة رشيد علي الكيلاني ضد المحتل البريطاني وحكم عليه أيضا بالإعدام, وبينما كان في طريقه إلى العراق لاحقته طائرة إنكليزية وفتحت النار عليه فغطاه رفاقه المخلصون بأجسادهم وأصيب بعدة رصاصات استقرت في جسده وبقيت فيه بقية حياته, واستمر في جهاده حتى أول هزيمة للجيوش العربية في عام النكبة 1948.

في السبعينات روى لي قبطان سفينة إيطالية أنه كان في إسرائيل, وسمع هناك بوفاة جنرال عربي (لم يحفظ الإيطالي اسمه), واحتفل اليهود بالرقص في الشوارع فرحاً بموته, فعلمت أنه القاوقجي بعد ما سمعت في الأنباء نبأً متواضعاً عن وفاته.

القاوقجي من مواليد طرابس (وكانت طرابلس حينها جزءاً من سورية) ويتنافس في محبته كل من حماة السورية وطرابلس اللبنانية, له بنت في سورية, سماها سورية محبةً بسورية وتتناول راتبا تقاعدياً بائساً.

هذا الذي جاهد طيلة حياته للقضايا العربية وطبَّقتْ شهرتُه الآفاق وسمتهُ الجماهير في دمشق الأسد المغوار, ومات فقيراً وفي جسده رصاصٌ صليبي, لم يعد يذكرُه أحد, بل إن معظم الأجيال الحالية تجهلُهُ, بينما تُـدَرَّسُ أسطورة جول جمال في المدارس على مدى الأجيال وما

هي إلا كذبةٌ من نسج الخيال ابتدعها صديقي كاظم زيتونه سامحه الله لكسب قلوبِ مسيحيي الساحل أيام العدوان الثلاثي على مصر عام 1956. كتبتُ خطابا إلى رابطة المحاربين القدماء للاتصال بالمحافظة من أجل تخليد اسمه في شارع أوساحة وقلت إن من العار أن ينسى هذا البطل, وقد علقتُ صورة له في الرابطة.

أبي وحكم البعث

كان أبي متفوقا في دراسته رغم فقره, واستطاع أن يحقق نجاحات جيدة في الحياة, والتحق بالسلك العسكري واندرج في عدة دورات عسكرية في فرنسا وموسكو والقاهرة, وحصل على درجة أركان حرب, وترفع إلى رتبة عقيد واستلم قيادة القوات البحرية في سوريا عام 1962. لم تدم قيادته طويلا إذ حدثت ثورة آذار بقيادة حزب البعث عام 1963, ثم أرسِل في مهمة إلى العراق بهدف إبعاده, وصدر أمر تسريحه وهو في العراق, خوفا من أن يحدث تمرّدا أو بلبلة في صفوف الجيش.

لم تستطع الدولة البعثية المهلهلة أن تستغني عن خبرته وعلمه, فاستعانوا به مرة أخرى عام 1980 وعينوه مديرا عاما للموانئ السورية ولكن بوظيفة مدنية.

منصبه هذا (مدير عام) عرَّضته للاصطدام مع كبار المتنفذين الفاسدين في البلد, من أجل تمرير صفقاتهم, أمثال جميل أسد (أخ الرئيس) الذي كان على نزاع مع كمال الأسد ابن شقيقه بخصوص وكالة بحرية, وكذلك فإن ميولـَه الإسلامية أثارت حفيظة جهاز الأمن.

كان كمال حائزا للترخيص القانوني للوكالة.. فامتنع والدي عن إعطاء الترخيص لجميل, وعلى إثرها أرسل جميل محاميه إلى أبي, وباحثه في الأمر لسحب الوكالة من كمال, ولكن والدي اعتذر للأسباب القانونية.

اتصل به جميل على الهاتف وأخذ يحط من قيمة ابن أخيه كمال, ثم قال مستنكرا: (كل من يستلم مركز في هذه الدولة يقول أنا ربكم الأعلى؟) فقال له والدي: "إن كنت تقصدني, فأنا آسف أن أسمع هذا الكلام من عضو مجلس شعب, وإنما أنا أنفذ القوانين التي تضعونها أنتم".. وانتهت المحادثة بقوله: "إذا بدك توقف بوجهنا من هلق ورايح رح تشوف".

بعد أيام وصلته برقية من نائب رئيس مجلس الوزراء لشؤون الخدمات آنذاك فهمي اليوسفي تنصّ على إعطاء الوكالة إلى جميل أسد!

يقول أبي في مذكراته:

لاحظتُ أنه لا يوجد في المديرية مكان للصلاة فخصصتُ غرفة لذلك.

مباشرة في اليوم التالي صباحا (لاحظوا سرعة ردِّ الفعل) رن جرس الهاتف وكان المتكلم رئيس فرع المخابرات في اللاذقية -واسمه عدنان دلول- وبعد تحية صباح الخير باستعلاء, قال: ما هذا المسجد الذي يقام في مديريتكم؟

فقلت أتمنى أن يكون مسجداً, وما هو إلا غرفة يصلي بها من يريد الصلاة بدل أن يصلي الموظفون في مكاتبهم, فقال في هذه الحالة يجب أن يكون للمسيحيين كنيسة, فقلت وليكن ذلك, فقال: لا هذا لن يكون, فسألته: بأي صفة تتكلم؟ فقال بصفتي المسؤول الأمني في المحافظة, فقلت له: إن لك أحد ثلاثة طرق للاتصال معي فقط , إما عن طريق رئاسة الأركان العامة, أو عن طريق وزير النقل, أو عن طريق المحافظ , فانفجر غاضباً وصاح: (أقسم بالله لأزعجك في عقر دارك) وأطبق الهاتف.

بعد دقائق اتصل بي رئيس المخابرات العامة علي دوبا من دمشق, وقال لي بلهجة ودية: لقد رحبنا باستلامك هذه الوظيفة ولكن رئيس الفرع أعلَـمَـنا أنك تضع العراقيل في طريق عمله.. فقلت له: الذي وصلك مبالغٌ فيه, وبعد يومين لديّ عمل في دمشق فإن شئتَ نلتقي وسأشرح لك الأمر, فقال: أتمنى ذلك.

سافرتُ إلى دمشق وتوجهتُ إلى مقر علي دوبا قرب تمثال عدنان مالكي في المهاجرين حيث قادني حراس متتابعون إلى مكتبه, استقبلني بحرارة ولطف وفوجئت بنعومة شكله, وكرر الإعراب عن سروره بتسلمي الوظيفة, ثم دخل في الموضوع, وسأل ما قصة المسجد؟ فشرحت له الأمر, فاستغرب وقال: قال لي عدنان أنك اقتطعت قسماً من المكاتب وعملته مسجداً.

ثم رويتُ له ما تفوّهَ به من تهديدات وعقبتُ قائلا: أظن أني لما كنت قائداً للبحرية كان عدنان في المدرسة الإبتدائية.

أثناء حديثي عن عدنان كان دوبا يدور في مقعده يُمنة ويسرة بعصبية وقال أرجو أن لاتكمل, لأني أعرف أن عدنان مهذب ولا أكاد أصدق هذا عن عدنان.

دارت بيننا عدة أحاديث, وكان من جملة ما قلتهُ له: إني مسلم وأعتز بإسلامي, ولا أخشى إلا الله. فعقب: إن الإسلام دين قيم. ووعدني بأن الأمور ستكون على ما يرام, ولما نهضتُ مودعاً نهض ورافقني إلى الباب الخارجي.

بعد عودتي إلى اللاذقية وجدت على طاولة المكتب ورقة كتب عليها: سيادة العقيد, صباح الخير, حضرت ولم أجدكم, موقعة من عدنان بلول. فعرفت أنه تلقّى ما يلزم للاعتذار وكأنما تقصَّد أن أكون غائبا عند حضوره.

هنا انتهت رواية أبي.

هذه الصدامات كان لها أثر سلبي لاحقا, في التحامل علي في التحقيق والمحاكمة, وقد حمل جميل الأسد حقدَه لسنوات طويلة, وأمر بمداهمة بيتنا, واقتحموه كالكلاب المسعورة, وهم يصيحون "أين العقيد؟".. ولحسن الحظ كان أبي غائبا.

كان والدي من جملة الناس العاديين غير الملتزمين بالإسلام ولكنه كان يمتلك الحمية والغيرة على دين الله, ولطالما كان يحلم بالجهاد في فلسطين والجزائر, وكان كثير القراءة والمطالعة, واسع العلوم, ففتح الله قلبه إلى الهداية حين أرادنا أن نلتزم بالصلاة (أنا وإخوتي) فلم يرَ بُدا من أن يبدأ بنفسه, فكيف له أن يأمرنا بالصلاة وهو لايصلي, وهذا ماكان, وظل يلاحقنا حتى صارت الصلاة جزءا من حياتنا, فكانت صلاته من أهم الأمور التي فاقمت النقمة علينا.

كذلك أمي, فقد شرح الله قلبها للايمان وارتدت الحجاب, وكانت من النساء المتميزات بحسن خطابها وكرمها وتواضعها وحبها للمساكين, ومحط أنظار النساء في البلد, وكانت محبوبة في محيطها.

مروان حديد (1934 - 1976):

أنقل مما جاء عنه في ويكيبيديا، الموسوعة الحرة:

هو مؤسس وقائد حركة الطليعة في سوريا، اعتقلته المخابرات الجوية في 30 حزيران سنة 1975 بعد أن قضى عدة سنوات يتنقل في الخفاء هرباً منها، وتوفي في سجن المزة العسكري بعد سنة من اعتقاله في شهر حزيران سنة 1976.

كان مروان حديد شابا طويلاً ممشوق القامة قويَّ البنُية عريضَ المنكبين، له شعرٌ أملسٌ أحمر، حليق الشارب واللحية، ثاقب النظرة، له لياقته ولباسه الأنيق الذي يلفت النظر .

تسجل في كلية الزراعة بجامعة عين شمس 1956 في مصر وتخرج منها في 1964، طالت مدة دراسته بسبب كثرة اعتقاله من قبل المخابرات المصرية، والتحق بكلية الآداب بجامعة دمشق قسم الفلسفة وحصل على البكالوريوس عام 1970.

عُرِفَ مروان بين الأخوان بأنه من أكثرهم تمسكا بالدعوة إلى الإسلام وبتعاليم الإسلام وبشريعة الإسلام، ومروان جدّي جداً فيما يعتقد ويؤمن به , ومخلصٌ وفيٌّ ومُحِبٌّ لإخوانه، وارتكز عملُه على جامع النوري الشهير في حماة، وكان زاهداً في الدنيا مستغرقاً في الآخرة، وكان كثير الصلاة والبكاء والدعاء في خلواته.

سافر مروان إلى مصر، والتقى بتلاميذ الشيخ حسن البنا الذي طالما أحبه ولم يعرفه، والتقى بسيد قطب وإخوانه، ونشِطَ كثيراً في الدعوة ونصرتها.

وكان لمحنة الإخوان واضطهادهم وإعدامهم في مصر بالغ الأثر وأعمقه في قلبه وحسه المرهف، وكان عبد الناصر يومها زعيمَ العرب وبطله م، ولكنه في الداخل كان جلادَ مصر ومرعبَها.

شارك في احتجاجات طلاب ثانوية عثمان الحوراني في مدينة حماة بتاريخ 1964/4/7، يوم أن خرج الطلاب في مظاهرة احتجاجاً على اعتقال أحد الطلاب الذي كتب على السبّورة (اللوح في الصف) آية قرآنية وهي : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون)، فاحتجَّ الطلاب البعثيون ودارت مصادمات بين الطلبة الإسلاميين والبعثيين، وطالب الطلاب في مظاهرتهم مدينة حماة بالإضراب فاستجاب التجّار وأبناء الشعب وأغلقوا محلاتهم، وتدخل الجيش لرفع حالة الإضراب فرفض أهالي حماة هذا الطلب , وتفاجأ الجميع بإقدام الطائفيين بقيادة العقيد الدرزي حمد عبيد قائد قوّات المغاوير، والعقيد الدرزي سليم حاطوم ومن ورائهم النصيري حافظ أسد وصلاح جديد وعزت جديد بقصف المسجد بالمدفعية والدبابات ودارت اشتباكات بين الجانبين انتهت باستشهاد أربعة من المعتصمين.

حاصر الجنود الشيخ مروان داخل المسجد وراحوا يطلقون عليه النار بشكل عشوائي وكثيف، وعندما تأكدوا بأنه أعزل من السلاح دخلوا عليه وكبلوه وانهالوا عليه ضرباً بكل ما وصلت

إليه أيديهم من أدوات، عصي وخيزرانات وبأعقاب البنادق وبأسلاك معدنية وغيرها، ثم حملوه في دبابة إلى م بنى دار الحكومة (السرايا) حيث كان الرئيس أمين الحافظ موجودا ومعه مجموعة من الضباط الآخرين.

وكان معروفاً عن أمين الحافظ بأنه بذيءٌ وفاحش اللسان، فعندما رأى الشيخ مروان شتمهُ وسبّه.

فقال له مروان: لِتَكُنْ خصومتُكَ يا أمينُ شريفة.

عنده ا تدخّل المقدم النصيري عزت جديد وأمسك بلحية الشيخ مروان، وقال له:

هذه المكنسة لا أريد أن أراها ثانيةً.

فزجره مروان وضربه ضربةً قويّةً برجله أسقطتهمن فوق درج مبنى السرايا إلى الأرض.

أقيمت محكمة عسكرية برئاسة مصطفى طلاس في حمص قُدِّمَ إليها مروان وإخوانه من المعتقلين، ودار حوار جريء بينه وبين قاضيه مصطفى طلاس في الجلسات التي كانت علنية وتُنقَل على الهواء مباشرةً جاء فيه ما يلي:

قال طلاس للشيخ مروان: أنت عميل.

- أنا عميلٌ لله.

قال طلاس: أنت مأجور.

- أنا مأجورٌ من الله.

قال طلاس: حكمتْ عليك المحكمة بالإعدام شنقاً حتى الموت.

فرد مروان بابتسامة ساخرة: والله يا مسكين لو عرفتُ أنّ بيدك الموت والحياة لعبدتُكَ من دون الله.

فضجت الصالة بالتصفيق الحاد والصراخ والاستهزاء بالمحكمة، فقاموا فوراً بقطع الكهرباء عن صالة المحكمة، وتم إيقاف البث الإذاعي المباشر.

وحكم عليه بالإعدام في محكمة صورية، ولكن الحكم لم يُنفذ وأُطلِقَ سراح مروان والمسجونين بعد تدخل الشيخ محمد الحامد وعلماء حماة عند رئيس الجمهورية أمين الحافظ آنذاك.

وشاء الله لمروان أن يختفي بعد هذه المرحلة وأن يعمل بالخفاء، وتنقّلَ بين عدة بيوت لمدة سنتين ونصف تقريباً في دمشق ، إلى أن داهمته قوة المخابرات في صبيحة يوم 30 حزيران 1975 واعتقل بعد مقاومة مسلحة استمرت لساعاتٍ عديدة.

لم يكن هناك محاكمةٌ سريةٌ أو علنيةٌ لمروان وإنما كان التحقيق المعروف لدى رجال المباحث والمختصين بشؤون التعذيب والتصفية الجسدية، فكانوا يُسمعونَه أصواتاً كصوت زوجته وهي تعذَّب وكأنما يُرادُ اغتصابها حتى أنهكوه.

تعرض مروان للتعذيب بالأضواء المبُهِرة، و كان أخسَّ ما اتبعوه معه هو كشف عورته بقصد الإذلال، ثم قطعوا عنه الطعام وأجاعوه حتى خارت قواه، وأحياناً كانوا يقدمون له الطعام بعد أن يمزجوه أمام ناظريه بالأقذار، فصار يأبى أن يأكل من هذا الطعام القذر.

مروان صاحب الطول الفارع والجسد الممتلئ والقبضة الحديدية يَنقلُ عنه أحد الذين شاهدوه أخيراً أنه كان أقرب إلى الهيكل العظمي منه إلى الجسد العادي، وكان يغيب عن الوعي لفترات متقطعة ويصحو، وبعد أن صحا قليلاً من غيبوبته قال لهذا الأخ: (انقل عنّي وقل للناس أن هؤلاء الكلاب "يعني المحققين" لم يحصلوا مني على كلمة واحدة تُشفي صدورهم).

ثم بعد ذلك ساءت حالته الصحية إلى درجة يئست السلطة منه فأرادت أن تُخفي جريمتها، فنقلوا مروان إلى مستشفى حرستا العسكري وجاؤوا بأخيه الدبلوماسي كنعان ليكون شاهداً من أهله أنه كان مضرباً عن الطعام، وأن حالته تردت بسبب امتناعه عن الطعام.

وفي مساء أحد الأيام عاد إليه أهله ليجدوه يجود بروحه الطاهرة وأشار بإصبعه إلى رقبته بأنه أعطي حقنة في عنقه.

توفى في سجن المزّة العسكري في شهر 1976/6

استشهد مروان ولم يُسمح لأهله بدفنه في حماة، فدُفِنَ في دمشق في مقبرة الباب الصغير تحت حراسة الأمن المشددة التي أحاطت بالمكان، وبعد دفنه بقيت المراقبة على القبر شهوراً وكانوا يعتقلون كل من يزور القبر.

حُمّـى الاغتيالات والاعتقالات

كان استشهاد مروان الشرارة الرئيسية التي فجّرت الأوضاع في سورية, فبدأت ملاحقة أتباعه, الذين أعلنوا الجهاد المسلّح ضدّ الحكم النصيري, وشكلوا الطليعة المقاتلة للإخوان المسلمين, ووجهوا عدة ضربات موجعة إلى النظام, وتمكّنوا من اغتيال شخصيات كبيرة في الحكم, وأدخلوا الرعب في نفوس كبار المسؤولين حتى هرب كثير منهم خارج البلاد, وأصبح حافظ يخرج على الناس عبر التلفزيون في خطابات هيستيريائية أطلق عليها الناسُ تهكّما اسم "مسلسل هذا الرجل في خطر", وكانوا قاب قوسين أو أدنى من رأس حافظ اللعين, حتى إنهم

سنة 1980 حاولوا اغتياله في القصر الجمهوري أثناء استقباله لرئيس دولة مالي, ولاذ الحرس المرافق له بالفرار, وكان تحت المرمى, لكنَّ مرافقـه انكبّ عليه وأحاطه بجسمه وهلكَ بدلا عنه, وظنّ الشباب أنهم قتلوه فانصرفوا, وهكذا -وليقضي الله أمرا كان مفعولا- نجا بأعجوبة, وبدأ عملية انتقام دموية استمرت سنين طويلة ولنصل إلى مانحن عليه الآن.

بعد يومين من محاولة الاغتيال نُـفّذت مجزرة سجن تدمر بقيادة رفعت الأسد قائد سرايا الدفاع, وبدأت حملة ملاحقات واعتقالات واسعة طالت شريحة كبيرة من الناس خاصة من المتدينين والمعارضين السياسيين وكل من له شبهة ولو من طرف بعيد بأحد من المطلوبين, وصدر المرسوم 49 الذي اشتهر في ذلك الوقت, والذي ينص على عقوبة الإعدام لكل من ينتسب إلى حزب الإخوان المسلمين, وصار هذا المرسوم الذريعة القانونية لملاحقة الناس وتنفيذ الإعدامات بهم.

رافق ذلك عمليات قرصنة من قبل المخابرات, فصاروا يختارون العناصر الإسلامية في كل منطقة, أو اساتذة الجامعة, أو الشخصيات المعروفة ذات الإتجاه الديني, ويقومون بقتلهم بطرق وحشية وهمجية.

ففي مدينة اللاذقية اختطفوا الأستاذ ممدوح شولحة, الخطيب المميز, من بيته, وعُثر عليه بعد يومين في ضواحي المدينة مقتولا بضربةٍ بالبلطةٍ على رأسه.

كذلك الشيخ العالم عبد الستار عيروط, اختُطفَ من بيته, ولم يعثر له على أثر بعد ذلك.

داهموا بيت الشيخ عمر زهر الفول, ولكنه لم يكن في بيته وهرب إلى لبنان وكتب الله له النجاة.

بعد اعتقالي بفترة أشهر, داهمت قوات تابعة لجميل الأسد بيتنا بحثا عن أبي ولكنهم لم يجدوه, ولو أنهم ظفروا به للقيَ نفس المصير, ولا سيما أنه كان هناك حقد شخصي عليه من قبل جميل الأسد كما أسلفت.

كانت هذه الحقبة من أشد الفترات توترا وإرهابا التي مرت بها سورية, وكان الحكم البعثي يحس بالخطر على كيانه, فكان في أشرس أوقاته, وكانت الاعتقالات في أوجها.

- أبو جميل أحد أصدقائي كان يعمل في مكتب عقاري.

مرَّ لعنده صديق له اسمه "عبد الحليم" وسلَّمَ عليه في المكتب, ودار بينهما حديث عادي:

- أبو جميل: شو الأخبار؟
- عبد الحليم: اعتقلوا فلانا (وذكر شخصا يعرفانِهِ كلاهُما).
- أبو جميل: الله يسترنا.

بعد فترة يسيرة اعتقل عبد الحليم, وكان مصابا بمرض في القلب, فقال للمحقق "أنا مصاب بمرض في القلب ولا أحتمل التعذيب" فقال له المحقق "إذا تتعاون معنا وتخبرنا بكل شاردة وواردة سمعتَها تتعلق بالحوادث الراهنة" .. فسرد عبد الحليم كل ما علمه وسمعه من أفواه الناس, وكان حوارُه مع أبي جميل من جملة اعترافاته.

انطلقت دورية مخابرات وأحضرت أبا جميل لأنه قال "الله يسترنا", وقالوا له لو لم تكن مذنبا لما قلت (الله يسترنا), وكلفته هذه الكلمة خمسة عشر عاما في السجن.

- مجموعة أخرى من الشباب الدمشقي:

زاروا أحد الأشخاص وشربوا عنده الشاي, وبعد فترة اعتقل هذا الشخص, واعترف تحت التعذيب أن هؤلاء الشباب زاروه في بيته وشربوا عنده الشاي, فأحضروهم جميعا, وانتهى بهم المطاف في سجن تدمر والتقيت بهم هناك, وكانت جريمتهم أنهم شربوا الشاي عند فلان!

- هشام شربجي:

أيمن شربجي كان على رأس قائمة المطلوبين للنظام البعثي, ولمّا لم يتمكنوا منه, اعتقلوا أخاه هشام, الذي لم تكن له تهمة سوى أنه شقيقٌ لأيمن (رهينة).

التقيت هشام في تدمر وكان مقربا مني وذا علمٍ وحَسَنَ المعشر, وأصيب بنوبات قلبية متكررة أثناء مرافقتي له في السجن, وأخلي سبيله بعد خمسة عشر عاما من سجنه, وتوفي -رحمه الله- بعد عام واحد من إخلاء سبيله.

البرتقالة

روى لي حسام فيما بعد, أنه سأل عنّي في المشفى وعلم الخبر بأنهم اعتقلوني في ذلك الصباح, وضاق به الأمر وأصابه الغم الشديد, وقال لأحد أصدقائه: "اليوم فقدتُ أقربَ أصحابي".

لم يرد إزعاج أهلي وتوتيرهم, ولربما ظن أنه لن يطول غيابي فتكتّم على الأمر ولم يخبر أحدا, وفي المساء خطر على باله أن يزور جدته, وذهب إلى عندها وهو مهموم مغموم ولم يخبرها بما حدث لي, ولم يُطِل مقامَه عندها.

همّ حسام أن يغادر بيت جدته, فاستوقفته الجدة وقشرت له برتقالة ودعته لأكلها!

كان حسام في ضيق شديد ولايرغب في الطعام .. أصرّت الجدة .. جلس بضعة دقائق وأكل البرتقالة.. هذه الدقائق كانت كافية لأن تصل سيارة الأمن التي أنا فيها إلى الحي وتدركَه قبل خروجه من بيت الجدة.

ودّع جدته ونزل الدرج.. ليلاقي جنود البغي ينزلون من سياراتهم وكأنه على موعد معهم.. فيا سبحان الله, ما أعجب تدبيره!

أنقل قصة اعتقالي أنا وأخي كما كتبها أبي - رحمه الله وأحسن إليه- في مذكراته وسماها المصاب الأعظم, أنقل لكم معاناته كما عاشها, وأسأل الله أن يكتبها له في صحيفة حسناته:

المصاب الأعظم:

كنت وأم أسامة في سفر, ونويتُ العودة لوحدي فاتصلتُ بابني المرحوم حسام وطلبت منه أن يأتي بسيارتي الخاصة إلى الكراج وينتظر وصولي. وصلتُ الكراج فلم أجد السيارة ولا حسام, فقلت في نفسي لعله أخطأ في حساب توقيت الوصول, فانتظرتُ, وطال الانتظار, وبعد أن يئست استأجرت تاكسي وانطلقت إلى بيتي وكنت أفكر ما عساه يكون السبب , فغلب على ظني أن مخالفة وقعت وتم توقيف السيارة من قبل الشرطة أو لعله قد حصل حادث اصطدام مع سيارة أخرى, وهكذا كان القلق يساورني إلى أن وصلت البيت ولم أجد أحداً في البيت.

لم يمض سوى وقت قصير على وصولي حتى قرع الجرس, ففتحت الباب ففوجئت بوالدتي ووجهها غارق في بحر من الدموع وهي تبكي بكاءً مراً, فسقط قلبي من بين ضلوعي وسألتُها ما الأمر؟ فأجابت بصوت متهدج والصوت يختنق في حنجرتها: حسام حسام..

- ما له يا أمي حسام ...

- لقد أخذوه

- من أخذه ؟

- المخابرات.. ألقوا القبض عليه.

أحسست بدوار بل أحسست أن الدنيا تدور حولي.

أراد حسام قبل أن يتوجه إلى الكراج أن يمر لعند جدته ليزورها, ويبدو أن كلاب المخابرات كانوا يرصدون تحركاته, فلما وصل دار جدته حاصروا الحي وتركوه حتى ينزل من عندها وأخذوه.. كانت الاعتقالات قائمة على قدم وساق في كل أنحاء سورية ولم يكن باستطاعة أي إنسان أن يفعل شيئاً مهما كان مركزه فكل الأمور بيد هُبل وأنصاف الآلهة, كانت سيارتي متوقفة أمام بناية الجدة ومقفلة.

كان من عادة ابني أسامة أن يأتينا كل يوم ولم يأت ذلك اليوم فسألت عنه في مشفاه, فأجابوني غير موجود, فباشرت الاتصال مع كل الأقرباء فلم يكن عند أحد منهم, فعدت للاتصال بالمشفى, فردَّت عليّ إحدى زميلاته بأنه خرج من المستشفى, فكررت السؤال بصيغة ثانية: هل خرج أم أخذوه؟ أجابت: أخذوه .. شعرت بصاعقة تخترق عظامي, وكان الانهيار.

يشهد الله أني كنت أتمنى لو أوضع على خشبة الإعدام مائة مرة على أن لا أرى أذى يقع لأولادي, لا أريد أن أتكلم عن الشجاعة فمواقفي كانت كثيرة ولله الحمد, ولكن بعد هذا المصاب شعرتُ أني أصبحت جبانا, ليس خوفاً على حياتي بل خوفاً على من هم أغلى من حياتي.

لم أعد أذكر الطريقة التي علمت بها أم أسامة بالنبأ, كل الذي أذكره أننا كنا هي وأنا في ذهول. بعد أيام من الاعتقال اتصلت بي أم أسامة من البيت وأعلمتني بوجود "زوار" في البيت لكي أحضر, ففهمت أن رجال المخابرات في البيت, فأسرعتُ إلى البيت فوجدت رجلين باللباس المدني علمت بأن أحدهما برتبة نقيب, فاستقبلاني بأدب وسألوني عما إذا كان في مكتبتي مجموعة "في ظلال القرآن" لسيد قطب, فسألتهم وهل حيازتها ممنوعة, وهل هناك قرار

صادر بمنعها, فأخذوا المجموعة, واستعرضوا المكتبة ولما رأوا مجموعة "ضحى الإسلام" هموا بأخذ بعض أجزائها (لأن فيها كلمة إسلام) فتدخلت بحدة وقلت لهم هذه سلسلة كتب تاريخ فإذا أخذتم جزءاً واحداً أفسدتم المجموعة كلها, فكفّوا عنها, ولما سألتهم عن الجهة التي أرسلتهم رفضوا الإجابة وقال كبيرهم "تعرف فيما بعد".

التحقيق

لاأحب أن أدخل في التفاصيل المؤلمة والمقزّزة التي عشتُها في تلك الفترة ولا أحب تذكرها, فهي تشمل كل ما يخطر في البال, من ضرب بالسياط والدولاب والكهرباء في المناطق الحساسة, وتجويع, وتعطيش, والمنع من إخراجنا إلى التواليت حتى تعرضنا إلى مواقف في غاية الإحراج, ودخولنا إلى المرحاض جماعة, وحشْرِنا في الزنازين التي لم نكن نعرف فيها ليلنا من نهارنا .. وما تسمعونه يا سادتي في هذه الأيام من حقارات وسفالة النظام السوري ليس منكم ببعيد.

سألوني أسئلة كثيرة, ولكن السؤال الأول والذي أذكره جيدا: "من هم أفراد أسرتك؟".

استغربت السؤال, لماذا يسألونني عن أسرتي! طبعا والدايَ وإخوتي.

كانت تلك أول مرة أسمع فيها هذا التعبير (الأسرة), وعندما لم أفهم السؤال, أعادهُ عليَّ "أفراد أسرتك في تنظيم الإخوان المسلمين".. والحقيقة أن هذا التعبير أعجبني فيما بعد فتشبيه المجموعة التنظيمية بالأسرة من دواعي المحبة والإلفة بين الأفراد.. ثم أردف: "ومن أميرك؟".

أمير أيضا!.. كمان شيء لطيف.. أسرة وأمير!

وأجبتُ بعفوية "ليس لدي أسرة ولا أمير" .. وهنا فـُتِحتْ أبواب اللهيب .. إلى أن أنعشوا ذاكرتي بأساليبهم المقنعة, فتذكرتُ أسرتي وأميري! وكادوا يقنعونني أيضا بأني من التنظيم المسلح بل على رأس التنظيم!

كانت قد مضت علي فترة طويلة بدون ماء أو طعام, وأحسست بالجفاف الشديد في حلقي, حتى بـُحَّ صوتي وأحسستُ أني لم أعد حتى قادرا على الكلام, وأخيرا أحضروا لي ابريقا من الماء فتشبثتُ به بكلتا يديَّ وشربتُهُ كلـَّهُ بنـَفـَسٍ واحد!.

وضعوا على الأرض صحنا ملتويا من الأرز وقِدرا كبيرا (نسميه طنجرة) من المرق, وقالوا كـُلْ.. كيف آكل؟ أرز ومرق؟ فالتفتُ إلى السجان وقلت له: "أريد ملعقة".. وماكدت أتلفظ بالكلمة حتى رأيتـُهُ يجري نحوي كالمسعور ويضرب الأرض بقدميه كالثور الهائج ويصيح: "كـُل ولاه".. فجعلتُ أغرف الأرز بأصابعي وأحمل القدر كله لأشرب منه المرق.

وضعوني بادئ الأمر في زنزانة طولُها متران وعرضها متر واحد, ليس فيها ضوء ولا ماء ولا دورة مياه طبعا, أشبه بمستودع للبضاعة, وبعد فترة وضعوا معي أخا آخر – أبو سعيد- حفظت منه سورة الكهف, وحفَّظتُهُ سورة مريم, وبقيت فيها خمسة وأربعين يوما, ثم نقلوني إلى غرفة جماعيّة.

أحد المساجين دق باب الزنزانة.. أقبل السجان إليه وسأله عن حاجته, فأجابه أنه يريد الخروج إلى دورة المياه, وهنا كانت المصيبة.. ففتح الباب وبدأ الركل والصفع والضرب مع الشتائم المتدفقة ثم أغلق الباب, بعد ذلك لم يعد يجرؤ أحد على دق الباب, وإذا اشتد به المخاض قد يقضي حاجته في كيس نايلون, هذا إذا كان حظُهُ جيدا ولديه كيس نايلون, ثم يفرغه في التواليت ويرجعه معه إلى الزنزانة فقد يلزمه مرة أخرى.

في إحدى المرات استُدعيت للتحقيق, ولم أكن أشعر بالوقت من توتر الأعصاب, ولكن اصدقائي أخبروني أنني غبت 6 ساعات, كنت واقفا طيلة الوقت, ويداي مقيدتان خلف ظهري, وأتلقى الصفع واللكمات على وجهي والسياط على جميع أنحاء جسمي, وتركني المحقق حوالي الساعة, لم أدر أين ذهب (ربما ذهب يتعشى) وأنا على هذه الحالة ثم عاد بعد أن استعاد نشاطه ودخن سيجارته, وأكمل استجوابه, ولما عدتُ إلى المهجع كان وجهي أشبهَ بالكرة المنفوخة (إذ أنني شاهدت نفسي في المرآة صدفة أثناء خروجنا إلى الحمام, فكدت لاأعرف نفسي) وجسمي مزرقا بالكامل, ولما بوّلتُ (عدم المؤاخذة).. أظنه كان دما.

كان من أشد وأصعب المواقف في التحقيق عندما سألوني عن نشاطات والدتي, ثم قال المحقق "أمك رئيسة التنظيم النسائي وسوف نحضرها إلى هنا".. كانت تلك الصاعقة التي نزلت على رأسي, وفتـَّت في عضدي أكثر من التعذيب والسياط, فما كنت أتوقع أن تصل بهم الخسة والنذالة وتلفيق التهم إلى هذه الدرجة, أن يهددوني بأمي, وأخذت التهديد على محمل الجد, فليس غريبا عن هذه الشرذمة المتجردة من أدنى المستويات الأخلاقية والإنسانية القيام بأي عمل, وبقيت لفترة طويلة متحسبا على أعصابي.

حتى أخي الصغير.. سألوني عنه, فقلت "أخي صغير, إنه طفل عمرُهُ سبعُ سنوات..." قال المحقق ساخرا "بعد سنتين يلتحق بالتنظيم وبنـْجيبُه".

خلاصة الأمر وبعد نحو شهرين أو أكثر, طلبوا مني أن أبصم وأنا معصوب العينين, فبصمت على الورقة وظننت أن الأمر انتهى, فقلب الورقة الثانية وأعاد الأمر "ابصم", فبصمتُ ثانية, ثم الثالثة فالرابعة.. حتى التاسعة.. وهمس المحقق في أذني بلهجة المنتصر: "عندما يسوقونك

إلى حبل المشنقة, تقدم لوحدك ولا تدعهم يجرونك". ومع ذلك كنت فرحا لأنني علمتُ أنه انتهى التحقيق أي انتهى التعذيب.

في احدى أمسيات أيار أقبل الزبانية وبدؤوا يقرؤون أعدادا كبيرة من الأسماء, كان اسمي بينهم, أخرجونا من مهاجعنا, وعصبوا عيوننا, وراحوا يسوقوننا بالضرب والركل عبر الأدراج الملتوية, وكلٌ يحمل كيسا صغيرا, هو كل ما يملكه من ثياب, إلى أن وصلنا إلى شاحنات مغلقةِ الجوانب ولها أبواب حديدية من الخلف, صعدنا إلى السيارت.

كنا معصبي العيون, وبعد أن جلسنا داخل الشاحنات بدأنا نتهامس, كل واحد يسأل عمن يجاوره, وكان من غرائب الأقدار أن كان إلى جانبي أخي حسام الذي لم أره منذ أربعة أشهر, أي منذ يوم اعتقالنا! كان السفر مناسبة للتحدث مع بعض, وكل حكى للآخر ما حصل معه.

تذكرت أبي رحمه الله, إذ كان دائما يقول لنا عندما يرانا سوية "الله لايفرق بينكما", لربما لأنه فُجع بأخيه وهو في الخامسة والعشرين بعمره, فكأنما كان يخشى أن يتكرر القدر!

تـــدمـــــــر

حفلة الاستقبال:

كانت الرحلة إلى تدمر, انطلقنا ليلا ووصلنا في الصباح الباكر مع طلوع الشمس منهكين.

كان الجلادون بالانتظار.. أوقفونا مستندين وجوهنا إلى جدار, وكنا حوالي المائة, وبدأت الحفلة.. كان يقوم على التعذيب ثلاثة مجموعات, في كل مجموعة أربعة جلادين.. يضعون الرجل في الدولاب, بحيث ينحصر رأسه من عند خلف رقبته ورجلاه من تحت الركبتين وهما مثنيتان داخل الدولاب.. اثنان يلفان العصا على القدمين ويشُدانِهما للأعلى, واثنان آخران يبدآن بالجلد بالتناوب, كل واحد من جهة.

كان الرعب يملأ قلوبنا, وصرخات الألم تختلط بوقع السياط المنهمرة.

جاء دوري, واستسلمت لقدري وأنا أتمتم بما أحفظ من الآيات ليكفيني الله شر المجرمين.. أتذكر أنهم وضعوني في الدولاب ولفوا العصا حول قدميّ بشدة حتى خلتهما سوف تـنقطعان, وانهالوا عليهما ضربا من الجانبين, لم أعد أذكر الفترة بالضبط وكأنها مَحِيت من ذاكرتي, ثم استفقتُ على جلاد يمسك دلوا من الماء ويصبه فوق رأسي وانا مستلق على ظهري, بادئ الامر نسيتُ أين أنا, ولم أفهم لم فعل ذلك وماذا حدث؟ واحتجتُ برهة من الوقت حتى عدتُ إلى رشدي واستنتجت بعد ذلك أني كنت غائبا عن الوعي, ولم يكن الأمر ثوان, ولكني كنت مغشيّـا علي, ولا أعرف كم استمرت فترة الضرب, وكان ذلك من رحمة الله بي إذ لم أحس بالعذاب, وكانت الغيبوبة بمثابة التخدير, وصرفهم عني, لأنهم يملّـون من الذي يفقد وعيه فيدعونه, ويفضلون أن يستمتعوا بصراخ غيره من المعذبين.

كانوا يسخرون ويصيحون في نشوة:

"ولاتحسبنّ الذين دخلوا سجن تدمر أمواتا , بل أحياء بأيدي الشرطة يعذبون".

المهجع:

بعد رحلة طويلة من السفر وبأتعس الوسائل والظروف, ثم حفلة الاستقبال التي استمرت حوالي الساعتين ودارت على الجميع, قادونا ومعظمنا غير قادر على المشي, نعرج متثاقلين نحمل جراحاتنا, والسياط خلف ظهورنا, وأدخلونا المهجع وأغلقوا علينا الباب.

تنفسنا الصعداء وأحسسنا بشيء من الأمان, كان المهجع كبيرا, حوالي مائة متر مربع, ليس فيه شيء غير الجدران القاتمة وطاقات فولاذية في السقف تُـرى من خلالها السماء, وهي طبعا لمراقبة السجناء, فكان يطلّ علينا الشرطي بين الفينة والأخرى ويتسلى بالناس.

لم نجد في المهجع ماءً, وكان الحرّ والجفاف والإنهاك قد أخذ منا مأخذه, وأحسست بحلقي يطقطق من العطش, ونمنا من شدة التعب ونحن عطاش, وأذكر أني فقت على حركة أحد الإخوة, فنظرت إليه لأعرف ماذا يريد.. كان قد جمع بعض الماء من الحمام ودار علينا يسقينا, كانت حصّة الواحد مقدار كوب صغير من الشاي, شربنا وحمدنا الله واستغرقنا في النوم.

كان في المهجع دورتا مياه, علينا أن نتدبر أمورنا كلها بهما, وكان في كل دورة صنبور (حنفية) ماء يكاد يلاصق الأرض هو لقضاء الحاجة والجلي وتعبئة الماء للشرب وشطف المهجع والغسيل, وكل ذلك بالتقنين الشديد, فكانت كل أمورنا بالدور ابتداءً من قضاء الحاجة - وأحيانا كنت أنتظر ساعة أو أكثر حتى يحين دوري- إلى الاستحمام (وكانت حصّة الواحد مقدار إبريق واحد أو اثنين في أحسن الأحوال, وربما يحتاج إلى أسبوع كي يصل دوره), إلى الغسيل .

رأينا على أرض المهجع احتفارات لطلقات رصاص وعلى جدرانه آثار الدماء الحمراء الجافة, كما أخرجنا من دورات المياه بعض الظروف الفارغة من الطلقات, وكانت هذه شواهد من مجزرة تدمر الشهيرة التي نـُفّـذت في السجن قبل قدومنا إليه بحوالي ستة أشهر, حين قام المغوار رفعت الأسد قائد سرايا الدفاع حينها - المعارض السوري الحر حاليا ويا للمهزلة- بالهجوم على السجن, وإلقاء القنابل اليدويّة من الطاقات على المساجين, ثم تمشيط المهاجع والإجهاز على من بقي منهم على قيد الحياة, وقـُتل فيها ثمانمائة إنسان.

في صبيحة اليوم التالي استيقظنا فوجدنا واحدا منا قد فارق الحياة, وكان جسمه ووجهه متورمين بشدة, وآثار النزوف بادية على وجهه ورأسه.. علمت لاحقا أن المخابرات لما سلموه إلى الشرطة في السجن, أوصوهم بالقضاء عليه لأنه من التنظيم المسلح.

حضر الشرطة, فقال أحدنا لدينا واحد ميت, فقالوا أخرجوه في بطانية, ثم استدعوا عناصر البلدية فحملوه ومضوا به ليدفن في الصحراء.

عبد الحليم:

كان عبد الحليم مريضا بالقلب, وكانوا يسمحون له بأخذ دوائه عندما كان في فرع التحقيق, ولكن عندما وصلنا إلى تدمر نفذ منه الدواء, وبعد أيام قليلة بدأت أعراض المرض تظهر

عليه, وأصبح عاجزا عن المشي والوقوف حتى الكلام, ولم يكن في وسعنا فعل شيء, لأن الشرطة كانوا أشبه بالوحوش الهائجة يستحيل التواصل معهم, إلى أن استيقظنا ذات صباح ووجدناه متوفيا, رحمه الله.

هذا هو تاريخ حكم الأسد الأب وجرائمَ أخيه رفعت, نراها اليوم على يد الأسد الابن وأخيه ماهر.. أليس التاريخ يعيد نفسه؟

زيارت الشرطة:

مع مرور الوقت بدأنا نشعر أن المهجعَ بيتـُنا, وأصبحنا نألفـُه, وحـُلـْمُنا في التنفس أو التفقد أن نعود إليه, وصار هذا المهجع يعج بالنشاط والحركة والعلاقات والتعارف, ولا يعكر صفونا إلا مجيء الشرطة, فكان لنا لقاء يومي معهم على التفقد, إذ نخرج جميعا إلى الساحة ونقف في أرتال بانتظار مجيء الرقيب ليحصي عددنا, وهم يصيحون علينا "يا مجرمين يا قتلة".. وكانت هذه أصعب الأوقات, ولابد في كل مرة أن يلقى بعضنا نصيبا من الأذى من ضرب بالعصي, أو قضبان الحديد, وكانوا يتعمدون ضربنا على رؤوسنا, ويدخل الكثيرون ودماؤهم تسيل من رؤوسهم, وكانوا أحيانا يـُخرِجون أحدنا إلى وسط الساحة ويجتمعون عليه كما تجتمع الذئاب على فريستها, وغالبا ما يحتاج بعدها إلى من يدخله, كما حدث مرة مع أحد إخوتنا وكسروا حوضه بعد رميه عدة مرات في الهواء.

كان المجروحون يهرعون فور دخولهم إلى المهجع إلى الحمامات, والدماء تسيل من رؤوسهم ويغسلونها بالماء, وكنت دائما أحذرهم من هذا الأمر, فمن الخطأ غسل الجرح بالماء, مخافة أن يلتهبَ الجرح ويصيبـَه الإنتان, ومن العجيب أنه لم تحدث ولا حالة واحدة من التهاب الجرح, وكنت أستغرب هذا الأمر, ولاأجد له تعليلا سوى العناية الربانية!

كان الجرح غالبا ما يكون عميقا وطويلا, وكنت أخيطه بإبرة الخياطة العادية والخيطِ الذي تخاط به الملابس!

والموعد اليومي الآخر كان إدخال مايسمونه بالطعام, فكان كذلك مناسبة لهم للنيل منا.

التنفس: سمَّوه "تنفس" وهو حق طبيعي للسجين أن يخرج إلى فسحة السجن ويتنفسَ في الهواء الطلق ويرى أشعة الشمس, أما بالنسبة لنا فكان التنفس قطعا للأنفاس, إذ نجلس على الأرض وظهورنا محنية للأمام, ورؤوسـُنا تكاد تلامس الأرض, وملتصقون ببعضنا, والويل

كل الويل لمن يأتي بأية حركة, أو يحاول أن يغير وضعيته, حتى اني أذكر في إحدى المرات احترقت قدمي بحرارة الإسفلت الملتهب, ولم أجرؤ على سحبها, وعندما وقفتُ بعد انتهاء التنفس المنعش لم أشعر بقدمي من الخدر, ولاأعرف كيف دخلتُ المهجع وأنا أعرج وأسحب رجلي سحبا.

كان الشرطة عندما يكونون مسالمين ويحبون التسلية, يبحثون عن صرصور ميت أو فأرة, ويأمرون السجين بابتلاعها, وطبعا عليه الامتثال للأوامر.

في أحد التنفسات, وقع اختيار الشرطة على "عادل عثماني" وهو طبيب أسنان من اللاذقية, وأثقلوا عليه بالضرب والأذى, ومن حلاوة الروح رفع يده ليصدَّ الضربَ المبرح الذي ينهال عليه من كل جانب وصوب.. وهنا ازداد هياج الشرطة, فاعتبروا هذه الحركة (رفع اليد) تمردا وتهجما عليهم, فكالوا له الصاع صاعين, وفي نهاية حفلتهم أمسكت كل مجموعة منهم أحد قدميه وفسخوه من رجليه.. ثم تركوه هامدا بدون حراك.. حمله الإخوة إلى المهجع, ومات بعد أيام , رحمه الله.

البلدية: وهم السجناء من العساكر المسجونين لقضايا مخالفات عسكرية, وغالبا ما يكونون من الطائفة النصيرية المشبعة بالحقد, ويكلّفون بالأعمال الدونية مثل إحضار أوعية الطعام إلى أبواب المهاجع وجمع القمامة والحلاقة بالموس لنا, ورغم أنهم سجناء مثلنا, لكنهم كانوا أسيادا علينا ويفرغون أحقادهم فينا, وكانوا أحيانا أشد إيذاءً من الشرطة, وأيديهم مطلقة فينا.

أما الحلاقة وما أدراك ما الحلاقة, فكنا نرى فيها الأهوال, ونقع بين فكي الكماشة: الشرطة والبلدية, وكانت حلاقةُ الذقن أقربَ إلى السلخ, وحلاقة الرأس أقرب إلى النتف.. وفي إحدى المرات بينما كنت أقف إلى الحائط أنتظر دوري إلى الحلاق, إذ يحضر أحدهم إلي ويختارني من بين الصف ويسحبني ثم يهوي على جبيني بشيء لم أعرف ماهو, ولكني أحسست بمثل سيخ حامٍ في وجهي, وأنا وأقف أنظر موقع قدميَّ, ثم أرى الدم يقطر جانب قدمي, ومازال أثر الضربةٍ في حاجبي حتى اليوم.

وكذلك الحمّام.. إذ كانوا حريصين على نظافتنا, فعندما يصيحون علينا : "بالشورت".. كنا نخلع ثيابنا إلا السروال في ثوان, وننطلق ركضا إلى الحمامات, فكانت صدورنا العارية تفتح شهيتهم للضرب, فيلاحقوننا بالسياط في هوس وجنون, وكأنك تشاهد أفلام رعاة البقر وهم يلاحقون مواشيهم, ولكن في حقد وليس حرص.

أذكرُ أحد المواقف مرة إذ كنا عائدين من الحمام, نجري وصدورُنا وظهورُنا مكشوفة, وقد وقف شرطيٌ على مدخل باب أحد الساحات, وهو معبر نجتازُهُ إلى ساحة مهجعنا..

استرقتُ النظر بطرف عيني فرأيتُهُ يحمل كرباجاً أسوداً ثقيلاً, وكلما مرَّ سجين أمامه هوى به على ظهره.. كان ممرا إجباريا.. وكنت قد اقتربتُ من الباب كثيرا, وعندما وضعتُ قدمي عند مقدمة الباب, صحت في قلبي ومن أعماقي: " يـــــــــــا الله".. أقسمُ بالله أن الكرباج وقع من يده في لحظتها, وعبرتُ واجتزتُ الباب بسلام.

أما الصلاة فهي الجريمة الكبرى, فمن ضُبط متلبسا بالجريمة فقد استحق أقصى العقوبات, وأعني هنا بالصلاة صلاة القلب والعينين طبعا, فالصلاة العادية أمر مفروغ منه, ولكنهم كانوا يراقبزننا ويلاحقوننا على صلاة عيوننا, إذ كنا نصلي إيماءً, فكان جلوس أحدنا لفترة مستمرة على وضعية واحدة مدعاة للريبة, فصرنا نموّه بعد ذلك ببعض الحركات أثناء الصلاة.

ونكايةً بالدين كانوا في رمضان يخرجوننا إلى الساحات ويأمروننا بشرب الماء.. فعلى مدار السنة نعاني من قلة الماء والعطش, وفي رمضان يحلو لهم أن يسقونا!

توصية خاصة بالمثقفين:

عندما وصلت إلى تدمر وعند دخولي ساحة الاستقبال, سألني شرطي: "ما تدرس؟".

سررتُ من السؤال, وقلت في نفسي جاء الفرج فلعلهم يحترمونني إذا علموا أني طبيب, فأجبتـُهُ بثقة: "أنا طبيب".

وهنا كانت الكارثة, فإذ به يصيح على زملائه: "تعالو وشوفو هالدكتور", وسرعان ما توافد قطيع الذئاب وتحلـَّقوا حولي, وأخذوا يعيدون السؤال عليَّ بين الرفس واللطم: "أنت طبيب ولاه؟ شو جابك لهون يا خاين الوطن؟".

أستاذُنا في كلية الطب أبو الخير الخطيب رحمه الله, علموا به أنه أستاذ جامعة وحفظوه, فعانى الكثير ولفترة طويلة, فكانوا دائما يطلبونه بعبارة "أستاذ الجامعة تعال إلى هنا", ويتقصدون تعذيبه وإهانته, ويأمرونه بتنظيف "التواليتات".

بعد ذلك تعلمنا الدرس, أن المثقف في السجن جريمته مضاعفة, إذ أنه العقل المدبر في التنظيم, وهو الذي غرر بالبسطاء من العامة والجهلة.. ولذلك وفي أحد التنفسات, وكنا في ساحة المهجع جالسين منحنين على الأرض ورؤوسنا بين أرجلنا, جاء الشرطي وركل أحد الجالسين

وسأله (وكان معظمنا من خريجي الجامعات): "شو قاري ولاه؟" – ويقصد ماذا درست- فأجاب الأخ: "صانع فران سيدي"!

فسأل الثاني "وهنت ولاه؟" فأجاب: "بياع كازوز"!

فسأل الثالث: "وهنت؟" فقال "بلّاط سيدي"!

فقال "يخرب بيتكن آفيكم حدا متعلم!".

وأحيانا أخرى كانوا يسألون أحدنا عن تهمته.. فكانت كلمة "إخوان" هي أسوأ جواب ويثير غضب الشرطة وحنقهم, ففي إحدى المرات سألوا سجينا في المنفردات (وكان في تدمر قسم خاص للزنزانات): ما تهمتك؟" فقال: "لواطة" فنجا من العقاب!

ومرة أخرى أثناء التنفس نادى الرقيب على الجالس في الصف الأول, فحضر إليه (وكان يحمل شهادة دكتوراة في الكيمياء) فأمره أن يحضر "مَـمْسحة" وماء, ثم قال له "نظـّف بوطي" -أي حذائي-, فاجتهد الأخ في تنظيف "بوطه", ويبدو أن الرقيب قد أعجبه العمل فسأله "شو دارس ولاه؟"

فأجاب السجين (دكتور الكيمياء): "رابع ابتدائي سيدي"!

فقال الرقيب مُـثنِـيا هازئا: "رابع ابتدائي وهيك, لكن كيف لو كان معك إعدادي؟". . ودخلنا المهجع ضاحكين ونحن نقول "لو علم أنه دكتور في الكيمياء".

رئيس المهجع:

هذا منصب لايطمح إليه أحد من المساجين, وكثيرا ما يصيبه الإنهاك والتوتر ويرجو إخوانه بأن يتطوّع أحدهم لهذه المهمّة الشاقة.

رئيس المهجع هو الناطق باسم المساجين, وهو الواقف دائما على باب المهجع, ومتأهب على مدار الساعة لنداء الرقيب عندما يدخل الساحة ويصيح "رئيس المجع", وبذلك هو على احتكاك دائم مع الزبانية, والمكلف بتفيذ الأوامر, ويجب أن يكون سؤيع الإجابة, حاضر البديهة, فكان بذلك الأقرب إلى بطش الشرطة, وتحيتهم بكرة وعشيا, وبعبارة أخرى هو القابع على فوهة المدفع, ونادرا مايسلم من أذاهم.

كان الشرطة يحضرون عند توزيع الطعام, ويطلبون رئيس المهجع إلى الخارج, ثم يبدأ كيل السباب والشتائم إليه لأنه لايضبط الصوت في المهجع وأنه سبب الشغب في المهجع, ثم ينال نصيبه من العقوبة, ويدخل إلى المهجع بالألوان!

في إحدى المرات طلبوا "أبو إبراهيم" رئيس مهجعنا وهو من بلدة الكسوة قرب دمشق, وقالوا له "يارئيس المهجع أخرِج إلينا المشاغبين".. ولما أجابهم أنه لايوجد لديه مشاغبين, انهالوا عليه لكماً وتعذيبا, والضرب بالسياط الغليظة على ظهر الأكف, حتى دخل المهجع وآثار السياط على شكل الشرطان الحمراء على رأسه, ويداه منتفختان متورمتان وهو يعتصر من شدة الألم.. جزى الله أبا إبراهيم كل خير.

في المرة التالية حضروا كالعادة, وقالوا له أخرج ثلاثة مشاغبين.. التفت أبو إبراهيم إلينا, وقال يا شباب من يتبرع؟

في لمح البصر كان ثلاثة من النمور ينقضون إلى خارج المهجع ليواجهوا التعذيب الوحشي, ونسمع صوت الجلد والسياط يصدح مدويا في الساحات ويشكو إلى الله ظلم المعتدين.. ويدخل الإخوة بعد ذلك مضرجين بدمائهم.. وفي أحيان يحتاجون إلى من يُدخلهم بعد فقدهم وعيهم, وقد ينال من يُدخلهم أيضا حصته.. تماما كما احتاج المشيعون في الجنازات في ثورة سوريا إلى من يشيعهم في اليوم التالي!

هذه لمحات ومقتطفات من عذابات خمسة عشر عاما أختصرُها في هذه الأبيات:

هي قصةُ الآلاف قد طحنتـْهُمُ هوجُ الرحى والفـتـنةُ العميـاءُ

هي قصةُ الغـولِ الذي لايرتوي يهوى الدماءَ وهمّـُهُ الإيـــذاءُ

هي قصة الكهفِ الرهيبِ, ورجعُهُ آهُ السجين وغـُصَّـةٌ ودعـــاءُ

دعني أرى الطاغوت قد دارت به كفّ ُالقِصاصِ وكأسُهُ السوداء

لغةُ الحوار سئمتـُها,والحقُ في حدِّ السيوف, وما سِواه هبـــاء

هيا خيولَ اللهِ هيا فاركبـــــي طابَ الوغى وليخسأِ الجبنـــاء

هيا سيوفَ محمدٍ هيا اضربـــيْ تـُشفَ الصدورُ.. ويَهلِكَ الأعداء

الحارس الليلي: ليس في تدمر وقت أمان, ولو كان منتصفَ الليل.

عندما تنتهي المهرجانات النهارية ويحلُّ على الدنيا الظلام – ولكن لم يكن يحل علينا الظلام لأن المصابيحَ منارةٌ داخل المهجع على مدار ال 24 ساعة للمراقبة-, يأتي دور الحرس الليلي من الشرطة الذين يجوبون أسطح المهاجع ويتلصصون علينا من الطاقات الكبيرة التي في السقف, وعادة في كل مهجع طاقتان تُمكِّنُ الشرطيَّ من رؤية معظم أرجاء المهجع, فيأتي الشرطي ويطلب رئيس المهجع, ويبدأ بإعطاء ملاحظاته عن كثرة الحركة أو الضجة, ثم تبدأ العقوبات.

هذا ما حدث في إحدى الأمسيات الباردة حين حضر الشرطي واختار ضحيته من أحد إخواننا, فاستدعاه إلى أسفل الطاقة (الشراقة) حتى يراه, ثم أمره بخلع ملابسه, وأمر أبا إبراهيم رئيس المهجع بإحضار "بيدون" الماء وصبه عليه, ونحن نرتجف في ملابسنا من شدة البرد, ثم أمر رئيس المهجع بصفع السجين على وجهه, فلم يعجبه أداؤه, فأمر السجين بصفع رئيس المهجع بيده, كذلك لم يعجبه, وهكذا بدأت لعبة تبادل الأدوار بالصفع, ثم انتقل إلى مرحلة الصفع على الوجه "بالشحاطة", وهو يصرخ كالكلب المسعور "أريد أقوى من ذلك يا ..." وبعد كل ذلك , ولم يرتو غيظه, قال " أنتما مُعلـَّمان".. من أجل عقوبة الغد في الصباح.

بعد فترة أمرونا أن نعين حارسا ليليا, ويكون هو المسؤول عن الفوضى في المهجع! .. وعليه أن يقف بوضعية الاستعداد العسكري طيلة فترة مناوبته التي هي ساعتان تحت الطاقة.

في إحدى الليالي كان دوري.. حضر الغراب.. نادى "حارس ليلي" .. تقدمتُ خطوتين وأديتُ التحية العسكرية, وقلتُ "حاضر", يبدو أن شيئا لم يعجبه! .. بكل بساطة قال "أنت معلـَم" وشتمني ومضى.

انتهت مناوبتي وخـَلـَدتُ إلى مكان نومي, ولكن لم يغمض لي جفن وأنا أفكر بماذا سوف يحملـُهُ الصباح إلي!

كنت أنتظر مصيبتي وأعصابي مشدودة وأقف قرب باب المهجع متهيئا للخروج, عندما حضر الجلادون وصاحوا "المعلـَّم لبرا".

تقدمتُ إلى باب المهجع وأنا أستعيذ بالله من شر الشيطان وحزبه وأهم بالخروج.

استوقفني رئيسُ المهجع وأعادني إلى الخلف, وقال "لقد خرج عنك أبو أيوب"!

ماهي إلا لحظات حتى بدأ وقع السياط على ظهر أبي أيوب يدوي في ساحة السجن, وبعد ربع ساعة دخل المهجع, كان ظهره أسودا مختلطا بالدم.. تجمعنا حوله, حمد الله وابتسم.. هكذا كانت المحبة في الله.. لاأذكر ماذا قلت له حينذاك.. أي شكر يفي عن هكذا موقف؟.. وتركت الشكر للذي لايُضيع أجر من أحسن عملا وهو خير الشاكرين..

عبد الوهاب:

في حلكة ظلمات السجون, كان أعداؤنا كثر, أولُهم الرعب, ثم الحزن, ثم الهموم.. وعبد الوهاب (أستاذ الرياضيات) آتاه الله موهبة شعرية, نظم هذه الأبيات السَلِسَة وألقاها بيننا:

خيوط الحزن أكفاني — سأحرقها بإيماني

وأحيا باسما جزلا — سراجا بين إخواني

حبال الخوف ثعبان — سأقطعه بأسناني

ولن أبقى له صيدا — صريعا بين جدران

مباني الهمِّ جاثمة — على صدري ووجداني

ونور الله صاعقة — يدمرها كبركان

ذنوبي جيشُ أشباحٍ — أصارعُها كثيران

كوابيسٌ مروعة — بجوف الليل تلقاني

سأبكي بعدها دمعا — يغرقها كطوفان

لعل الله يشملني — بعفو أو بغفران

سيبقى أخضرا عودي — بإسلامي وقرآني

ونارُ الأرض لا تجدي — بتحريقٍ لريان

لكم جلدٌ.. لكم عظمٌ — لكم أعناق إخواني

خذوها نحو مجزرة — تراها عينُ طغيان

لنا ربٌ.. لكم نارٌ — لنا جناتُ رحمن

أبو دان:

في إحدى المرات زارنا الشرطي ليلا, وأراد أن يتسلى, أو يداعبنا بألعابه اللطيفة, فأمر الحارس الليلي - وكان "أبو عبدو" رحمه الله- أن يعض سجينا من أذنه, واشترط عليه حتى يُفلتَ من "القـَتـْلة" في اليوم التالي, أن يرى الدم يخرج من أذن السجين, واضطر "أبو عبدو" أن ينفذ الأمر, والسجين يولول, فذلك أسهل بكثير من الخروج في اليوم التالي إلى أيدي الوحوش.

سُرّ الشيطان من حسن أداء أبي عبدو, وارتوت شهوته الإجرامية برؤية الدم يسيل من أذن الأخ, وقال له "أحسنتَ يا أبو دان". – أي أبو أذن-.

في المناوبة التالية لنفس الشرطي, أقبل إلينا ليعيد الكرة مرة ثانية, فصاح أين "أبو دان؟".

حضر "أبو عبدو", وأمره الشرطي أن يعض سجينا آخر, ولم يغادر مصاص الدماء حتى رأى الدم يسيل من أذنه.

كانت لدينا في المهجع بعض الحبات من دواء اسمه "ريفا" يستخدم لعلاج داء السل, ومن خصائص هذا الدواء أن لونه أحمر فاقع, حتى أنه يَصبغُ البول باللون الأحمر ويبدو كالدم تماما!

وضع أبو عبدو" حبة ريفا في جيبه وأبقاها معه تحسبا, وحَضـَرَ مصاص الدماء كما كان مرتقبا, ونادى :"أبو دان إلى هنا".

أقبل "أبو عبدو".. اختار الشرطي الضحية, وأمر أيا عبدو بالانقضاض عليه.. كان "أبو عبدو" قد وضع الحبة بحركة سريعة في فمه وقرطها وذاب الدواء الأحمر في فمه, وأطبق فاه على أذن الأخ متظاهرا أنه يعضـُّه, والسجين طبعا يصرخ ويولول, وسالت "الريفا" حمراء على شفاه "أبو عبدو" وأذن السجين, وانصرف الحمار مسرورا, وهو يقول "أبو دان آفي متلو".

رحم الله أبا عبدو, إذ كان في عداد الشهداء.

حســـــــــــــام

كان إدخال الطعام من أشد المغامرات المحفوفة بالخطر العظيم, فالسجين مشغولةٌ كلتا يديه بأوعية الطعام الكبيرة (طشت) أو أكياس الخبز (شوالات), وبالتالي لايستطيع درء السياط عن رأسه ووجهه, فكانت هذه أفضل مناسبة للجلادين لإيقاع الأذى بفريستهم.

كان الطعام يصلنا بنفس الجاطات (الأوعية) التي نـُخرج بها القمامة, وكثيرا ما نجد القمامة ما زالت في "الجاط" تحت الطعام.

كان يمر الشرطي ويمسك حفنة من التراب او الحصى ويرميها في "طشت" البرغل, الذي هو أصلا مليء بالحصى ولا يحتاج إلى إضافة, أو يبول في "جاط" الشاي.

الخبز كان يأتينا في شوالات كبيرة, خبز عسكري مستدير سميك قاس, إذا ضربتَ به رأس أحد قد تَشـُجـُّه!

كانت كمية الطعام قليلة جدا, فالبيضة عادة لأربعة أشخاص والتفاحة لثمانية, ونصف ملعقة لبنة للشخص الواحد أو ملعقة حلاوة, أما اللحمة والدجاج فهي للشم فقط, وكنا غالبا نتركها للمرضى لقلتها.

فتـّة الحلاوة كانت من الولائم المفضلة لدينا إذ كانت الحلاوة قـَطعا نادرا, خاصة وأننا لم نذق طعم الحلوى منذ سنين, فكنا نجمعها ونمددها بالشاي ثم نخلطها مع كسارات الخبز.

كان بعض الإخوة يقدمون حصتهم من الفاكهة هدية للمرضى أو للمصابين لتوهم من أذى المجرمين, وكان بعضهم يضعها في حاجيات أخيه سِرّا دون أن يخبره مبتغيا بها وجه الله, فكان لايدري الآخر من أين وصلته الهدية, وكانت هذه الهدية أقصى ما يمكن أن يقدمه السجين (ربع تفاحة أو ملعقة حلاوة).

كان أخي حسام من الذين يفعلون ذلك, وفي إحدى المرات ونحن جالسون إلى الطعام لاحظتُ أن لدي قطعتين من التفاح فنظرت إلى موقع أخي فلم أجد أمامه شيئا, وكان قد غافلني ووضعها أمامي دون أن ألاحظ, سألتـُه "من أين هذه؟" فتهرب من الجواب, فأعدتـُها إليه.

كان رحمه الله من الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

كان بحوزتنا كمية قليلة من النقود, وكان نظام السجن يسمح بشراء بعض الحاجيات البسيطة مثل الألبسة و"البيجامات", فوصى حسام على "بيجامة".

وصلت "البيجامات", فهرع كل من وصى على "بيجامة" واختار واحدة إلا حسام, فكان آخر من ذهب, وانتظر حتى انتهى الجميع من استلام "بيجاماتهم" وأحضر آخر قطعة, نظرتُ إليها فكانت حمراء كريهة المنظر... كان السجناء يتحاشون اللباس الأحمر, لأننا عندما كنا نخرج إلى الساحات ويريد الشرطة تمضية وقتهم والتسلي بأحد المساجين, كان أول ما يصيحون به بشكل عفوي "أبو الأحمر", وكأنما اللون الأحمر يثيرهم كما يثير الثيران.. فكان السجناء يتجنبون اللون الأحمر في ملابسهم.

انزعجتُ من حسام وأبديتُ تذمّري من اختياره, وقلت له ربما ألبَسُها أنا وهذا اللون غير مرغوب كما تعلم, إنه الأحمر, المصيدة.. لم يجاوبني, إذ كان رحمه الله يحترم تقدمي عليه بالعمر (سنة واحدة فقط!), غاب قليلا وعاد.. حاول أن يرضيني, استبدلها من أحد الأخوة ببيجامة أخرى حمراء أيضا ولكن أقل حمرة!

أحيانا كان أفراد الشرطة يلاحقوننا بوحشية وهياج أثناء دخولنا إلى المهجع بالسياط على ظهورنا ورؤوسنا, فيدب الذعر بيننا ويحدث الهرج والمرج والتدافع على باب المهجع.. ولكن حسام لم يكن يهرب, وكان من أواخر من يدخلون المهجع.

كان أخي حسام رحمه الله على رأس الطليعة الفدائية المتطوعين لمهمة إدخال الطعام.

كانت إحدى أمسيات السجن الكئيبة عندما فُتح باب المهجع, واستدرنا جميعا إلى الجدران, وصاح السجان "البرّا" أي أدخلوا الطعام.. خرج ثلاثةُ فدائيين لإدخال الطعام, ولم أكن أعلم مَن الذين خرجوا, وبدأ الجلد والضرب.. ثم تلا ذلك صوتُ صيحة رهيبة أدخلَتِ الهلع إلى قلبي, ثم سكنتِ الأصوات كلُها واختفى صوت الصراخ, أحسست أنّ الصوت مألوف جدا لدي, مع أنها كانت صرخة.. أغلق الباب.. وانصرف الجزارون.. وأقبنا نستطلع الخبر.. وكانت الصاعقة.. وكأن خنجرا أغمد في صدري.. لا أنسى تلك اللحظة.. يا إلهي.. كان أخي حسام.. عينُهُ حمراء متورمة والدم يقطر منها.. رحمتَك يارب..

ساد المهجع سكونٌ قاتل.. الجميعُ يراقب في وجلٍ وصمت.. أقبلتُ إليه وقد انعقد لساني, فماذا عساي أقول, كان يتألم بشدة لكن بصمت.. بدا في لحظة انهيار لثوان وكأنه أدرك شدة إصابته, ثم تنهَّدَ تنهيدة عميقة حزينة تحكي كل معاني القهر والأسى, تشكو إلى الله ظلمَ العباد, وطغيانَ أهلِ الفساد, ثم راح يحمد الله.

كان أثر السوط واضحا على رأسه, على شكل شريط أحمر مدمَّى, نهايته عند عينه.. وكان يحمل "شوال" الخبز الثقيل بكلتا يديه, عندما تحيّنَ الجلاد الفرصة ليهوي بحقده الأسود بالكرباج (السوط) على رأسه, ويلتف السوط الغليظ على رأسه وتصيبُ نهايتُهُ عينه.

حاولنا أن نجمع بعض قطرات العيون من الموجودين معنا, ولكن ماذا تفعل القطرة؟ ولكني تشبثتُ بالامل , وكنت أقْطُرُ له باستمرار, وأنتظر الأيام على أحرَّ من الجمر, إلام سيؤول الأمر.

بعد أيام جفَّ الجرح وانقطع سيل الدم, ووضع ضماد على عينه لمدة أسبوع, كنت أتحاشى أن أنظر إلى عينه, ولا أريد أن أصطدم بالحقيقة, وأعلل نفسي بالأمل, إلى أن آن الأوان لنزع الضماد والتأم الجرح.. كنت قلقا ومتوجسا, نـزَع الضماد ورفع رأسه وفتح عينيه.. كانت عينه بيضاء تماما... أطرقتُ رأسي طويلا إلى الأرض وانهمرت دموعي غزيرة في صمت.

نحتسب أجره في الحديث الشريف: عن أبي هريرة, رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم, قال: يقول الله عز وجل: "من أذهبت حبيبتيه فصبر واحتسب لم أرضَ له ثوابا دون الجنة".

في إحدى المرات وصلتـْنا بعضُ الحاجيات (ثياب وطعام) إلى السجن من أهلي, بشكل غير مباشر عن طريق زيارة لسجين صديق معنا, تربط علاقاتٌ بين أهلنا وأهله.

سررتُ بالأمر, وأحسستُ أن باب الفرج أطل علينا أخيرا, فقلت لحسام "لعلّ هذه البداية وربما يستطيع أبي الوصول إلى المسؤولين ويوصيهم بنقلنا من هذا الجحيم.. أي المهجع الذي نحن فيه إلى مهجع آخر, حيث المعاملة أفضل"... أطرق قليلا ثم قال بأسلوب لبق مهذب وباختصار شديد, وكأنه يـُنكِر علي رغبتي, وطريقةَ تفكيري في النجاة بطريقة فردية: " وهؤلاء الناس؟" .. لم أستطع الإجابة.. كلمتان قالهما كانتا أبلغَ من مئات الصفحات من المواعظ.

كان مع الحاجيات التي وصلتنا كمية قليلة من الحليب المجفف (بودرة), وكانت إصابة حسام حديثة, وكان من المناسب أن أخصَّه بشيء من الغذاء كونه مريضا, وهذا الحليب بالأصل من ملكيتنا الخاصة, فهيأت له كوبا ووضعتُـهُ بهدوء أمامه, وجلس أفراد القصعة إلى الطعام (وكنا ثمانية).. لم يعلق.. أمسك كوب الحليب وصبَّه فوق الطبق المشترك في الوسط.. لم أنطق بأية كلمة.. كان جوابا عمليا بدون كلام!

كان محبوبا من رفاقه وإخوانه, مرحا, يـُدخل البسمة إلى قلوب الحاضرين بنكتة لطيفة رقيقة, بارعا في تقليد الأصوات, ذكيا في تعليقاته, كثيرَ الذكر والاستغفار.

مرة جلسنا –أفراد المجموعة – إلى الطعام, وكان دور حسام في الاستحمام, فكان غائبا وتأخر.. تناولنا الطعام إلا واحدا معنا لم يأكل, سألتهُ "لماذا لم تأكل يا فلان؟".. أجاب "أنتظر حسام, لاآكل حتى يأتي"!

هذه سيرة إخوتي وأصحابي في الأسْر, أما سيرة الوحش الذي حكم سوريا ثلاثين سنة ورسّخ نظاما بوليسيا إرهابيا لايزال مستمرا إلى يومنا هذا فأنتم تعرفونها وتعيشونها مع وريثه.

وحش الصحارى:

وحشُ الصحارى دينـُهُ إجــرامُهُ وذرى مناهُ بشفرةِ السكيـــــنِ

وحشُ الصحارى كيف يفقه حكمةً عَرَفَ الحياةَ تخبّطَ المجنونِ

وحش الصحارى كيف يرعى زهرةً هو لوثةٌ وقذارةٌ في الطيـــنِ

هو ليس يرعى غير كلِّ خبيثـــة من جنسِهِ أو شوكةٍ تؤذينـــي

أشهدتُ ربي لن تهونَ عزيمتي حتى أطيحَ برأســـِهِ الملعونِ

مجزرة حماة

في شباط 1982 وبعد أن اعتدنا إلى حد ما على نمط الحياة والأحداث وتعامل الشرطة, لمسنا فجأة تغيرا في هذا النمط, فشراسة الشرطة زادت حدة, مع اشتداد طريقة الضرب والتعذيب والوحشية, وازدياد الشتائم المرتبطة بالعمالة والخيانة وعداوة الوطن, إضافة إلى ذلك ازداد عذذ الوافدين إلى سجن تدمر بشكل ملحوظ, وكنا ندرك ذلك من أصوات الصراخ التي تصلنا من حفلات الاستقبال, وكنا نميزها من طول فترتها وجهة مصدرها.. توقعنا أن شيئا مهماً قد حدث في البلد.

بعد ذلك بدأت المهاجع تضيق بالوافدين الجدد, ولما امتلأت جميع المهاجع في السجن إلى درجة الاختناق شرعت الإدارة الحكيمة في بناء مهاجع جديدة وسط الساحات لتتسع لهذه الأعداد الغفيرة, ثم اضطروا إلى ضم قسم من المسجونين الجدد إلينا, فزدنا ازدحاما فوق ازدحامنا.

كان معظم القادمين من مدينة حماة, وكانوا بالآلاف, وأخيرا عرفنا منهم النبأ.. وأن الذي حدث إنما كان ثورة شعبية في مدينة حماة وقام جيش الأسد بسحقها بآلته القمعية العسكرية.

ورد ذكر مجزرة حماة في موسوعة الويكيبيديا, وأنقل موجزا عنها:

هي أوسع حملة عسكرية شنها النظام السوري ضد الإخوان المسلمين في حينه, وأودت بحياة عشرات الآلاف من أهالي مدينة حماة. بدأت المجزرة في 2 شباط عام 1982 م واستمرت 27 يوماً. حيث قام النظام السوري بتطويق مدينة حماة وقصفها بالمدفعية ومن ثم اجتياحها عسكرياً, وارتكاب مجزرة مروعة كان ضحيتها عشرات الآلاف من المدنيين من أهالي المدينة. وكان قائد تلك الحملة العقيد رفعت الأسد شقيق الرئيس السوري.

سقط ضحية هذه العملية الأمنية العسكرية 40 ألف قتيل وفق تقديرات اللجنة السورية لحقوق الإنسان، وهدمت أحياء بكاملها على رؤوس أصحابها كما هدم 88 مسجداً وثلاث كنائس، فيما هاجر عشرات الآلاف من سكّان المدينة هرباً من القتل والذّبح والتنكيل.

تشير التقارير التي نشرتها الصحافة الأجنبية عن تلك المجزرة إلى أن النظام السوري منح القوات العسكرية كامل الصلاحيات لضرب المعارضة وتأديب المتعاطفين معها. ولتفادي الاحتجاجات الشعبية والإدانة الخارجية فرضت السلطات تعتيماً على الأخبار، وقطعت طرق المواصلات التي كانت تؤدي إلى المدينة، ولم تسمح لأحد بالخروج منها، وخلال تلك الفترة كانت حماة عرضة لعملية عسكرية واسعة النطاق شاركت فيها قوات من الجيش والوحدات الخاصة وسرايا الدفاع والاستخبارات العسكرية ووحدات من المخابرات العامة. وقاد تلك الحملة العقيد رفعت الأسد, والذي عُيّن قبل المجزرة بشهرين مسؤولاً عن الحكم العرفي في مناطق وسط سوريا وشمالها ووضعت تحت إمرته قوة تضم 12 ألف عسكري مدربين تدريباً خاصاً على حرب المدن.

اختلف عدد ضحايا المجزرة باختلاف المصادر:

جريدة الإندبندنت قالت بأن عدد الضحايا وصل إلى 20 ألفاً.

وفقاً لتوماس فريدمان :قام رفعت الأسد بالتباهي بأنه قتل 38 ألفاً في حماة.

اللجنة السورية لحقوق الإنسان قالت بأن عدد القتلى بين 30 و40 ألف, غالبيتهم العظمى من المدنيين. وقضى معظمهم رمياً بالرصاص بشكل جماعي، ثم تم دفن الضحايا في مقابر جماعية.

بدلاً من أن تتخذ السلطات السورية الإجراءات الكفيلة بالحد من آثار المجزرة وتداعياتها على سكان المدينة المنكوبة والمجتمع السوري بشكل عام، والتحقيق في أعمال التنكيل والعنف التي وقعت ضد الأهالي وأبيدت خلالها أسر بكاملها، فقد عمدت إلى مكافأة العسكريين المشتبه في تورطهم فيها أو الذين كان لهم ضلع مباشر في أعمال القمع، ومن بين هؤلاء العقيد رفعت الأسد الذي عين نائباً لرئيس الجمهورية لشؤون الأمن القومي، وضباط كبار في الجيش والمخابرات جرى منحهم رتباً أعلى، كما تم تعيين محافظ حماة آنذاك محمد حربة في منصب وزير الداخلية، وكانت تلك الإجراءات بمثابة استهتار غير مسوغ من قبل الحكومة بالمشاعر العامة، وتأكيداً واضحاً على استمرار منهجية القوة بدلاً من الحوار في التعاطي مع الشؤون الداخلية.

هذا بالإضافة إلى السجناء السياسيين الذين أودعوا في السجون العسكرية عشرات السنين, وإنزال عقوبة الإعدام بكل مواطن ينتمي لجماعة الإخوان المسلمين ,عدا عن المفقودين الذين لا يعرف أهلهم هل هم أحياء أم أموات.

المحـــكمـة

(أو بالأحرى المهزلة)..

بعد أحداث حماة بفترة بسيطة, وفي صباح 17 نيسان 1982 حضر الزبانية وبدؤوا يقرؤون أسماءَ كثيرة, حتى بلغوا حوالي ستين اسما, كان جلّـهم ممن معي في مهجعي, وكنت أنا وأخي في جملة هذه الأسماء.. كانت قراءة الاسم عادة مثيرة للقلق ومدعاة للريبة.. خرجنا من المهجع بوضعية السجين المعروفة في تدمر, وهي الرأس إلى الأسفل والنظر حيث موضع القدم, والظهر منحنٍ أقرب إلى الركوع, وكلٌ يـُمسك بخاصرتي الذي قبله في طابور.. طبعا لاندري إلى أين؟ ربما إلى التنفس, وما أدراك ما التنفس, أو إلى الشاحنات لنقلنا إلى سجن آخر أو ربما إعدامنا أو ... والخيارات مفتوحة لكل الاحتمالات.

المهم أخذونا إلى ساحة قريبة من إدارة السجن, وأجلسونا على الأرض في وضعية مشابهة للسابق, وبدأوا يقرؤون أسماءنا بشكل فردي, فيهبُّ صاحب الاسم واقفا, ويأتي الشرطة فيقودونه بالركل والصفع إلى غرفة في الداخل, ويغيب برهة من الزمن, وأحيانا نسمع صراخا وأصوات الجلدات والسياط, ثم يأتي دور التالي.

جاء دوري, نهضتُ, قالوا امش, أدخلوني إلى غرفة مكتب, وقفتُ في منتصف الغرفة, حيث كان رجل يجلس إلى طاولة خشبية مهترئة وبجواره كاتبٌ يمسك ورقة وقلما ويدوِّنُ ما يملي عليه الأول.

قال- هل أنت فلان؟

- نعم.

فالتفت إلى معونه وعلـَّق: "كان أبوه مديرا عاما للموانئ السورية, وكان يتهجَّم يـُجرِّحُ عناصر الأمن" وكان الغيظُ باديا في كلامه.

ثم أردف قائلا: ما العمليات التي قمتَ بها؟

فأجبتـُهُ متفاجئا بالسؤال: لم أعمل شيئا.. فأتبعه فورا بسؤال آخر: من دعاك إلى التنظيم؟

في مثل هذا الموقف من المستحيل أن تقولَ أني غير منظم أو مظلوم, فحاشا لهم أن تتهمهم بالظلم, والويل لمن يدعي البراءة, فهم لم يـُحضروا الناس إلى السجن جزافا..

فكرتُ في نفسي أن أي إنكار أو محاولة تغيير في إفادتي سوف تجلبُ لي وجع الرأس, وتفتح علي أبواب التحقيق من جديد, ولن أستفيد شيئا, لأن الاحكام مقررة سلفا, فقلتُ في نفسي سوف أختصر الطريق وأطابقُ بين أقوالي السابقة في التحقيق وأقوالي الحالية, واكتفي شر هذا اللقاء.

المهم أن ذلك الرجل, والذي تبين لنا فيما بعد أنه القاضي, سألني بضعة أسئلة, لاأجرؤ فيها على الدفاع والنكران, ثم التفتَ إلى معاونه في سخرية قائلا: " يا حرام, انظر, شباب في عمر الورود, أليس من الخسارة إعدامُهم".

لم أكترث كثيرا لكلامه, وظننته نوعا من الحرب النفسية, وكان كل همي أن أعود إلى مهجعي سالما .. واستغرقت مقابلتي حوالي خمسة دقائق, وتبين لنا في مابعد أنها محاكمة عسكرية, وكان قاضيها ذلك المجرم "سليمان الخطيب".

انتهت محاكمتنا جميعا (الستين شخصا) في حوالي أربع أو خمس ساعات.. نعم في خمس ساعات يحاكم ستون شخصا, أي بمعدل خمس دقائق للشخص الواحد, ويحكم على نصفهم بالإعدام, وعلى ربعهم بالسجن المؤبد !

وكذلك محاكمة أخي حسام فقد كانت أشبه بتلك المهزلة, واتّهمه القاضي الفاضل بالتنظيم المسلّح, والتفتَ إلى الكاتب وقال: "اعدمه".

وهكذا كانت محاكمتي بتهمة عداء أبي للنظام البعثي, ولاسيما أن أعداء أبي كانوا كثيرين, بسبب استقامته ورفضه للرشاوى والفساد الذي كان مستشريا في جميع مفاصل الدولة, وللأسف كان من أبناء طائفتنا وملتنا من الذين ناصبوه العداء الكثيرون, ومنهم الوزير السابق جمال صوفي رحمه الله.

يقول أبي عن علاقته مع جمال صوفي:

هو من أبناء اللاذقية من الدورة الأولى للكلية العسكرية في عهد الاستقلال, كنتُ معاوناً له, وكان ذا اتجاه بعثي وقد دخلتُ معه في جدل عدة مرات بسبب عدائي لحزب البعث. دخلَتْ علاقاتي معه بين شد وجذب وكاد يرميني إلى المهالك عدة مرات.

لما كان حافظ أسد برتبة ملازم حصل شجار في القرداحة بينه وبين عائلة مخلوف (أهل زوجته) قبل أن يتزوجها, وكان جمال صوفي قائداً للمنطقة الساحلية فأمر بتوقيفه وأرسله إلى دمشق مخفوراً.

كان جمال من العشرة ضباط الذين طاروا إلى عبد الناصر وطالبوه بإقامة الوحدة. فعينه وزيراً للتموين في الإقليم الشمالي في دمشق ثم ما لبث أن صار وزيراً للتموين في الجمهورية العربية المتحدة في القاهرة.

حدث الانفصال وبالرغم من أن حزب البعث قد بارك الانفصال فإن جمال الصوفي بقي على الولاء لعبد الناصر وبقي في مصر.

بعد أن رجع جمال من مصر وصار حافظ رئيساً للبلاد, نقل جمال عن حافظ كلاما سمعه منه, وكان يظن أنه في حصانة من بطشه, لكنه تسبب في سجنه وتعذيبه وإذلاله.

وهكذا انقلب الزمان وألقى حافظ أسد (عندما صار فريقا ورئيسا للجمهورية) القبض على جمال صوفي (الضابط المتقاعد والوزير السابق) وسجنه لمدة أربع سنوات مع التعذيب.

عند خروجه من السجن لم اكن أرغب أن أساله عن ظروف السجن كي لا أذكره بتلك الأيام, لكنه بادرني من تلقاء نفسه وحدثني عن تلك الأيام بالتفصيل, بدءا من الزنزانة المنفردة إلى الضرب والتعذيب.. فالزنزانة كانت بطول 180 سم وعرض 80 سم ليس فيها مرحاض ولا ماء, وصحن الطعام كان يركل إليه بالأقدام, وكانوا يسمعونه أشرطة مسجلة لأناس يعذبون وأصوات إطلاق رصاص وأنباء تُعْلِمهُ بموت أولاده وزوجته.

استدعاه في أحد المرات اللواء ناجي جميل (ضابط أنيطت به مسؤوليات أمنية لفترة طويلة إلى أن رمي به في حاوية النفايات بعد انتهاء دوره) وكان علي دوبا موجودا وحوالي خمسة عشر ضابطا آخرين لمناقشته في بعض الآراء السياسية, وقال لي جمال أنه شعر بنفسه كأنه حيوان استقدم أمامهم ليتفرجوا عليه.

استدعاه حافظ بعد خروجه من السجن لمقابلته في اللاذقية وأمضى معه أربع ساعات من الحوار, بعدها منح ابنَ جمال بعثة دراسيّة خارج البلاد على نفقة الدولة, في إشارة غير مباشرة من حافظ أنه رب الأرباب وعنده الجنة وعنده النار, يعذب أو يرحم.

حفظ في السجن أجزاءً من القرآن الكريم وبعد إطلاق سراحه قام بأداء مناسك الحج, وصار بيننا ودٌّ وزيارات, وفي إحدى زياراتي له أشار إلى الماضي قائلاً :(إن ما يجمعنا اليوم هو الأخوَّة في الدين, كنتُ أقول عنك أنك عنيد, واليوم أقول الحق, لقد كنتَ على صواب).

في أواسط التسعينيات توفي, سامحه الله وغفر له وأسكنه الجنة.

تدمر الجامعة

بعد أيام من وصولنا تدمر, وبعد أن تعافت معظم جراحنا, وعرفنا أنه استقر بنا المقام وربما لأمد طويل, بدأنا نـُنظِّم حياتنا, فكان هناك من وظيفتـُهُ توزيعُ وتحديد أماكن النوم بواسطة الخيط, فكانت حصة الواحد تعادل شبرا واحدا من الأرض عرضا وبمقدار طوله طولا مع بعض التداخل بالرؤوس والأقدام, وكذلك توزيع الطعام, فكانت كل مجموعة تضم ثمانية أشخاص, واسمها "القصعة" كما هو التعبير في القطعات العسكرية, وكان يتولى رئيس المهجع ترتيبنا للخروج إلى التفقد في أرتال وصفوف, وهناك من ينظم الدخول إلى الحمامات والغسيل, وما إلى ذلك من حياتنا اليومية.

وما إن تنتهي لقاءاتنا البغيضة مع الجلادين, حتى ينقلب المهجع إلى خلية نحل, ويبدأ الدرس والتدريس, فكل واحد إما معلم أو متعلم, وتتشكل حلقات العلوم الشرعية والعلمية.. فمِن حفظ القرآن والحديث, إلى علوم التجويد وأحكام الفقه والعقيدة, إلى قواعد اللغة العربية والإعراب, حتى أعربْنا معظم القرآن, مرورا باللغة الإنكليزية والدروس الطبية, إلى تعلم الخط والتخطيط وحفظ الشعر ونظمه, وانتهاءا بمباريات الشطرنج (كنا نصنعه من العجين) والمسرحيات الترفيهية.

أما الورشات, فمنها صنع الخيطان والشِـباك (من أكياس النايلون), وصنع الملاعق والسكاكين (من الجاطات والأوعية البلاستيكية المكسورة), وغزل الصوف, إذ كنا ننقـُضُ الكنزات المهترئة ونعيدها خيطانَ صوف ثم نصلح الخيطان ونعيد غزلها من جديد, وحفر الحيطان (بواسطة قصاصة الأظافر) وتركيب علاقات في الحائط من الخيوط والبلاستيك حتى نعلق أكياسنا على الجدران وبذلك نفرغ المساحة الأرضية وتتسع من أجل النوم.

أما أنا فكان من جملة أعمالي قلع الأسنان إذ أنه لا مجال في تلك الظروف من مداواة للأسنان و كان الألم يشتد بصاحبه حتى يضرب رأسه بالحائط, ويقبل بأي حل ممكن للتخلص من ألمه.. ومع أن ذلك ليس عملي, وليس لي سوابق تجربة في قلع الأسنان, إلا أني وجدتُ نفسي مضطرا تحت الأمر الواقع, لأن أقوم بهذا العمل, فكنتُ أجدل خيطا متينا على الضرس المطلوب قلعه, وأربط الطرف الآخر من الخيط بقطعة خشب بطول شبر أو بملعقة خشب فتصبح كالمقبض, ويساعدني اثنان أو ثلاثة في شد الحبل وتثبيت الضحية.. ونبدأ الشدّ.. ويا ميسِّر.. وفي كثير من المرات كان الضرس يطير ونبحث عنه بين متاعنا.

استطاع معظمنا بفضل الله حفظَ كتاب الله, وكنا نقرأ القرآن مثنى مثنى, أي كل اثنين معا على الأغلب, حتى لانُحدث تجمعا, فالتجمعات ممنوعة, واحد يقرأ والثاني ينصت!

كان الذين يحفظون سورا من القرآن قبل دخولهم السجن المصادر لتحفيظ القرآن, فمن يحفظ سورة يُحفـِّظـُها لإخوانه, فمثلا أنا كنت أحفظ سورة مريم وطه والنمل, فقمت بتحفيظها لبعض الإخوة الذين قاموا بدورهم بنقلها إلى غيرهم, وكان أخي حسام يحفظ سورة الأنعام والتي هي من أصعب سور القرآن, وهكذا حتى استطعنا جمع القرآن الكريم كله, ومعظمنا حفظ القرآن في سنتين أو ثلاثة على الأكثر, وفي كثير من الأحيان كان بعضنا يبدأ بالفاتحة عند صلاة الصبح وينتهي بسورة الناس عند المغرب (ختمة كاملة).

وكان معنا أبو حسن قطان الذي يحفظ السيرة النبوية كاملة, فحفظناها منه.. وكذلك كان معنا أساتذة وطلاب الشريعة الذين نقلوا لنا الأربعين النووية وكثيرا من الأحاديث الشريفة.

كانت معظم أوقاتنا مليئة, فكان يأتيني من يطلب حفظ سورة, فأعتذر منه وأعيـِّنُ له موعدا بعد أسبوع!

كما تناقلنا الكثير من الأشعار والأناشيد الإسلامية, مثل "أخي أنت حر وراء السدود" لسيد قطب, وروائع هاشم الرفاعي.

هاشم الرفاعي

باعتبار أن حالَ المسلمين واحدُ في كل البلاد العربية, تحضـُرُني هنا هذه الأبيات التي قالها الشاعر المصري الفذ هاشم الرفاعي, وقد مات وهو في العشرينات من عمره, وله عدة قصائد, قرأتـُها قبل وقوعي في محنتي, وكان لها بالغُ الأثر في نفسي, وبتقدير النقاد الشعريين لو قـُدِّرتْ الحياة لهذا الرجل لكان من أعظم شعراء العصر الحديث, وهذه الأبيات من قصيدة "أم تهدهد ابنها":

أما حكايتنـــا فمن لون الحكايـــات القديمـــة

تلك التي يمضي بها التاريخ داميةً أليمـــــــة

الحاكمُ الجبارُ والبطشُ المسلحُ والجريمـــــة

وشريعةٌ لم تعترف بالرأي أو شرفِ الخصومة

ما عاد في دستورها لكرامة الإنسـان قيمــــة

ثم يتابع:

هو مشهدٌ من قصة حمراء في أرضٍ خضيبـــة

كُتبتْ وقائعُهُ على جـُدُرٍ مُضَرّجة رهيبـــــة

قد شادها الطغيانُ أكفاناً لعزتنا السليبــــة

مشـــتِ الكتيبةُ تنشرُ الأهوالَ في إثرِ الكتيبـــة

والناسُ في صمتٍ وقد عقدتْ لسانَهمُ المصيبـــة.

أما قصيدته الشهيرة, "رسالة في ليلة التنفيذ", (وللعلم فإن هذا الرجل لم يعدم في السجن, ومات مقتولا طعنا بالسكاكين بعد فترة وجيزة من خروجه من السجن).. فقد كنتُ في سفر بين اللاذقية ودمشق, فبدأت بقراءتها عند انطلاق الباص من اللاذقية, ومن شدة تأثري وإعجابي بها قرأتُها عدة مرات, وما وصلتُ دمشق إلا وكنت قد حفظتـُها, ونقلتـُها فيما بعد لإخوني في تدمر, وهذه بعضٌ من أبياتها:

أبتاهُ ماذا قد يخطُّ بناني -- - و الحبلُ و الجلاد ينتظران

هذا الكتابُ إليك من زنزانةٍ ---- مقرورة صخرية الجدران

لم تبق إلا ليلةٌ أحيا بها ---- وأحسُّ أن ظلامها أكفاني

إلى أن يصل الشاعر إلى حديث النفس فيصفها في لحظة ضعفها والندم على الضلوع في صفوف الثورة.. فها أنت سوف تموت سدى كشاة في قطيع الأغنام, وركب البغي ماض في طريقه وغيِّه, وموتك لن يغير شيئا.. ولايلبث ان يأتي الجواب عظيما محلّقا في سماء المبادئ والقيم, ويرسم خطوطا ذهبية لمعنى الحياة:

و يدور همسٌ في الجوانح ما الذي--- بالثورة الحمقاء قد أغراني؟

أو لم يكن خيراً لنفسي أن أُرى--- مثلَ الجميع أسير في إذعان؟

هذا دمي سيسيل يجري مطفئاً--- ما ثار في جنبيَّ من نيران

والظلمُ باقٍ لن يحطمَ قيدَهُ ---- موتي, ولن يودي به قرباني

ويسيرُ ركبُ البغيِ ليس يَضيرُهُ --- شاةٌ إذا اجتُثتْ من القطعان

هذا حديثُ النفسِ حين تشفّ عن--- بشريتي.. وتمورُ بعد ثوان

وتقول لي إن الحيـــاة لغايةٍ ---- أسمى من التصفيق للطغيان

أنفاسُكَ الحَرَّى وإن هي أُخمِدَتْ --- ستظَلُّ تغمُرُ أُفْقَهم بدخان

وقروحُ جسمِكِ وهو تحت سياطِهم -- قسماتُ صُبحٍ يتقيه الجاني

دمعُ السجينِ هناك في أغلالِهِ ---- ودمُ الشهيد هنا سيلتقيان

أهوى الحياة كريمةً لا قيدَ لا ---- إرهابَ لا استخفافَ بالإنسان

فإذا سقطتُ سقطتُ أحملُ عزّتي ---- يغلي دم الأحرار في شرياني

كان هذا البيت يهزني من أعماقي وأشعر أنه اختصر محنتي كلها في بيت واحد:

دمعُ السجينِ هناك في أغلالِهِ ---- ودمُ الشهيد هنا سيلتقيان

فأنا السجين في أغلاله... ودم الشهيد هو دم حسام...

المســؤول الصــحي

بعد نحو ثلاث سنوات سأل الشرطة عن المسؤول الصحي في المهجع!

لم نفهم ما هو المطلوب, ولكننا بحثنا عن أقربنا علما بالعلوم الطبية, ووقع الاختيار عليّ, وبذلك حزت على هذا الترفيع! وهكذا صار في كل مهجع شخص مكلف بمتابعة المرضى والتكلم باسمهم أمام طبيب السجن, وليس بالضرورة أن يكون طبيبا, فقد يكون صيدليا أو مخبريا وربما بيطريا, أو عنده بعض المعلومات الطبية الأولية.

كانت مهمتي أن أخرج من المهجع راكضا بأقصى ما لدي من سرعة عندما يفتح الشرطي باب المهجع ويصرخ "مسؤول صحي", لأقابل طبيب السجن, فيسألني ماذا يلزمك من الأدوية الضرورية بأسلوب تذمّري وكأنه يقول لي لاتطلب شيئا. كنت أطلب الأدوية المهمة فقط, ومع ذلك فكثيرا ما كنت ألقى نصيبي عند الطبيب أو أثناء عودتي لأني تماديتُ وأكثرتُ من الطلب.

بعد يومين يعودون الشرطة يحملون الأدوية النفيسة ليوزعوها علينا.

في أحد الأيام خرجت أستلم دوائي وأنا أحمل صحنا, بعد أن رمى الشرطي الأدوية على الأرض, لمَمْتُها ووضعتُها في الصحن, مشى معي الشرطي إلى المهجع وهو يسبني ويتوعدني لأني أكثرتُ من جلب الدواء (صحن لمائتي شخص: كثير), وفتح الباب لأدخل, واستغلّ وضعي أني كنت رافعا كلتا يدي ممسكا بصحن الدواء, فباغتني برفسة ملء عزمه بمقدمة حذائه العسكري على بطني, لاأنساها ما حييت.

كنت على باب المهجع, شهقت من ألمي شهقة مُصيـّتة سمعها كل من كان في المهجع, وأحسستُ أن نفسي انقطع تماما وعضلات صدري قد تشنجت كلها, ووقعت مصفرا شاحبا ولم أستطع استعادة تنفسي إلا بعد برهة من الوقت, وبقيت أسابيع أعاني من الألم مكان تلك الركلة.

حمدي:

كان حمدي مريض قلب, وساءت حالته, فحَصـْتـُهُ ووجدتُ عنده علامات استرخاء قلب, قلت لناصر (رئيس المهجع) إنه بحاجة إلى مستشفى ووضعه خطير ويجب التبليغ عنه.

عند التفقد رفع ناصر يده (وكان شجاعا مقداما) وقال بصوت عال:

-" حضرة الرقيب: أريد أن أكلمك".

قال "تعال هنا".. "ماذا؟".

-"عندي مريض حالته خطرة وبحاجة إلى مستشفى".

وكان كأنما ارتكب رئيس المهجع إحدى الكبائر!

"مستشفى يا ...؟".

وانهال عليه الزبانية ضربا ولطما وشتما, ودخل المهجع وقد تلون جسمه, وعلى عينه كدمة وأذية بليغة كادت تودي بها.

لم يعد بوسعنا شيء إلا أن نشاهد حمدي وهو يموت ببطء.. بعد يومين استفقنا صباحا فوجدناه قد فارق الحياة.

حضر الجناة, قال رئيس المهجع :"حضرة الرقيب عندي واحد ميت".

بعد نصف ساعة, حضر الشرطة مرة ثانية, قالوا أخرجوه في بطانية.. أخرجناه.. أخذوه ومضوا.

بعد ساعة حضر الشرطة مرة أخرى فتحوا الباب ونادَوا "مسؤول صحي".

هَرَعْتُ إلى الباب ووقفتُ عنده, وقلتُ "حاضر".. وإذا بطبيب السجن قد حضر, فدار هذا الحوار:

- مسؤول صحي... ما قصة هذا الميت؟
- إنه مريض قلب سيدي.
- ولماذا مات؟
- لقصور في القلب سيدي.
- وهل كنتَ تعطيه الدواء بانتظام؟
- طبعا سيدي.
- قال بلهجته: "لتكونْ قصّرتَ عليه بالدوا ولاه".
- أعوذ بالله سيدي, كنتم ترسلون كل الدواء الذي نطلبه كاملا, وكنتُ أعطيه إياه بانتظام, ولكن مرضه مستفحل, ولو كان المريض في أحسن مشافي أمريكا لمات, نعم مرضُهُ ليس له علاج بتاتا, إنه ميؤوس منه سيدي.

بدت على لهجته علامات الرضا وقال: "كويـــــــــــــس, تمـــــــام".. أغلقوا الباب وانصرفوا, صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لايفقهون, ولولا أن الله ألهمني حسنَ الجواب لألصقوا بي تهمة قتلِهِ, وربما ألحقوني به!.. وقد صدق بشار, صدق وهو كاذب, حين قال (وهي من المرات التي تعد على الأصابع ويصدق فيها): اكذب .. اكذب.. حتى يصدقك الناس, فهم يكذبون ويريدوننا أن نردد كذبهم.

الأمراض المعدية:

عندما كنا نخرج إلى الحلاقة على أيدي البلدية, كان الحلاقون الذين بأيديهم أمواس الحلاقة ثلاثة أو أربعة, فكانت هذه الأمواس الثلاثة تمر على ذقون مائتي شخص وبطريقة وحشية همجية, فندخل المهجع والدم يسيل من وجوهنا, وكان ذلك سببا في انتشار مرض التهاب الكبد الذي ينتقل بالدم الملوث, وفي المهاجع التي حدث فيها المرض كانت الإصابات شبه شاملة لجميع أفراد المهجع بنسبة تزيد عن 90%, ولم ينجُ إلا بضعة أفراد, وأدى إلى وفاة بعضهم بسبب قصور الكبد وظهور اليرقان والاصفرار (وأحيانا الاخضرار) فقضوا في السجن, وآخرون خرجوا من السجن يكملون مسيرة حياتهم وهم مصابون بتشمع الكبد الدائم.

أمرٌ آخر زاد من إصابات الكبد.. كنت أطلب سيرينغات (محاقن) لإعطاء الإبر العضلية, وكانت تصلني كميات محدودة جدا أو لاتصلني, فاضطر لاستخدام السيرينغ عدة مرات لنفس المريض وأحيانا عند الانقطاع لعدة مرضى.

في إحدى المرات طلبتُ من طبيب السجن سيرينغات, فقال لي لماذا تكثر من السيريغات؟

- ليس لدي كمية كافية منها سيدي.

- استعمل نفس السيرينغ.

- إني أستعمله أكثر من عشر مرات.

- بل تستعمله ألف مرة. "انقلع".

أصبنا بحالات جرب مخيفة, فلا حمام ولادواء مع ازدحام كعلب السردين, فكانت تنتشر فينا الدمامل والقشور الجربية إلى حدود غريبة ومخيفة غير معروفة في الطب, وأنا شخصيا قد عانيت منه الكثير وتطور معي إلى لوحات مستديرة بمساحة الليرة على سواعدي, ومع الوقت كانت تنفصل القشرة عن الجلد, ويظهر تحتها مستنقع من القيح.

مرض السل أيضا فتك أيضا بالكثيرين.

أذكر مرة انتشرت الحمى التيفية بيننا, وأصابتني العدوى, وصارت حرارتي كالجمر مع صداع شديد وألم بالبطن, وكان الدواء شحيحا جدا والمصابون كثـرٌ, فطلبت من أحد إخواني إعطائي إبرة "كلورامفينيكول", ولم يكن يسمح الحالُ بأكثر من إبرة واحدة لكل مريض, علما أن مرض الحمى التيفية, كما هو معلوم في قواعد الطب يحتاج إلى علاج لمدة عشرة أيام على الأقل, فأعطاني الحقنة.. حقنة واحدة فقط.. وشُفيتُ بإذن الله (وإذا مرضت فهو يشفين).

الحاجة أم الاختراع:

جاءني أحد الإخوة وقد انتشرت في جسمه آفات جلدية حمراء دائرية مقوسة, سبَّبت له الحكة الشديدة, ولما عاينتُها توقعتُ أنها من أنواع الفطور.

وكان لايزال في ذاكرتي, أن اليود مادة قاتلة للفطور, وأتيحت بين يدي بضعة حبوب من دواء قديم كان يستعمل كمضاد للإسهالات يدخل في تركيبه اليود, واسمه Enterovioform فأخذتُ حبة وطحنتُها جيدا.

كنا نجمع أثر السمن والزيت الذي يعلق على حواف أوعية الطعام (الطشت), فوضعتُ ملعقة من هذا السمن في علبة صغيرة, ورششتُ الحبة المسحوقة معها ومزجتُهما, وأعطيتها للأخ, واستعملها, وكانت النتائج فورية بحمد الله, ودعا لي كثيرا, رحمه الله (استشهد).

فيصل غانم

مدير السجن.. اسمه يدخل الرعب على سجناء تدمر.. لم نكن نراه أونسمع صوته مطلقا, فمقامه أعلى من ذلك بكثير!

في حركة مفاجئة وغير مسبوقة, جمعونا في أحد الأيام في ساحة السجن, وكنا عدة مهاجع, وجلسنا نرتقب, وامتلأت الأسطح بعناصر الشرطة المسلحين في جلبة غير معهودة.

كانت زيارة تفقدية من مدير السجن "فيصل غانم" يتفقدُ فيها أحوال الرعية!

طلع علينا السيد فيصل بقامته البهية وبدلته العسكرية, وألقى علينا محاضرة مختصرة في الوطنية, وبأننا نحن السجناء أمانة في رقبته, ثم سألنا هل نريد شيئا, أو فيما إذا كان لدينا شكاوى!

في البداية لم يتجرأ أحد على الكلام, ولما أصرَّ على أن يسمع مطالبنا قام بعض السجناء فوقفوا وتكلموا, فمنهم من اشتكى من سوء الطعام, ومنهم من طالب بالدواء, ومنهم من طالب بحريته لأن حـُكمـَه "براءة", ومنهم من طالب بفتح الزيارات ...

وعـَـدَنا خيرا ومضى وانفضت المسرحية.

في اليوم التالي حضر الذئاب وصاحوا علينا: أين الذي يريد تحسين الطعام؟ وأين الذي يريد الدواء؟ وأين الذي يريد الزيارة؟ وأين.. وأين.. فأخرجوهم من بيننا وأعطوهم درسا في الأدب وحسنِ الطلب!

بعد فترة استجاب فيصل لطلب الزيارت, وبدأ أهالينا يصلون إلى السجن فعلا, ولكن ليس حبا بالمساجين ولكن حبا بجيبـه الذي امتلأ من الثمن الباهظ للحصول على الزيارة, والتي تدفع إلى أمه في قريته (الهنادي في ريف اللاذقية) قبل الزيارة.

كان يـُذاع الاسم, فيخرج صاحب الزيارة للقاء أهله ويلتقي بهم بعد فراق ثلاثِ سنوات لمدة لاتزيد عن ربع أو نصف ساعة على أبعد تقدير, ويكون اللقاء طبعا بحضور عناصر السجن وفي مكتب المساعد تحت المراقبة المشددة, ويعود السجين بعد ذلك حاملا ما تبقى من أغراض الزيارة التي أحضرها أهله إليه, بعد أن يأخذ الشرطة والبلدية مايحلو لهم منها.. أما المساعد فيترفع عن هذه الأغراض, ويقاسم السجين حصته من المال الذي يستلمه من أهله, وفي أغلب

الأحيان ينال السجين نصيبه من تهنئة الشرطة له بمناسبة الزيارة وهو في عودته إلى مهجعه, حتى أن معظمنا لم يعد يتمنى الزيارة.

أبو مخلص –رحمه الله- كان من الذين أتيحت له مقابلة أهله في زيارة قبل استشهاده, وعندما عرضوا عليه إعطائه نقودا رفضها وقال لهم لاحاجة لي بالمال, لعلمه بحاجة عياله إلى النقود بعد اعتقاله وفقد معيلهم, وعلمه أيضا بأن هذا المال سوف يسرق منه, وكانت النتيجة أن لقي ضربا مبرحا بعد الزيارة, وعاد إلى المهجع والكدمات تملأ جسمه.

كـَـتـَـبَ أبي – رحمه الله - في مذكراته:

العقاب الإلهي:

كانت النساء يأتين إلى أم فيصل من كل أنحاء سورية, وكانت تقول الأم بملء صوتها: من لم تـُحْضِر مبلغ كذا "فلتنقلع". وكانت التي تُحضر التسعيرة المطلوبة تحصل على ورقة منها, تـُقدَّمُ لابنها في تدمر فتتمكن تلك المرأة من زيارة السجين الذي يخصها.

وحدث أنّ امرأة باعت مصاغها وقدمته لأم فيصل, وأخذت ورقة منها للزيارة, لكنها لم تجد السجين في تدمر, فلما عادت هذه المرأة لأم فيصل لتسترد مالها طردتها. وكانت التسعيرة حوالي 16 ألف ليرة سورية أي ما يعادل أربعمائة دولارامريكي في ذلك الوقت.

هذه المرأة المتجبرة التي أَثـْـرَتْ من خلال دموع وآهات النساء اللاتي حملن الجراح في قلوبهن, أم فيصل التي تجاهلت آلام الأمهات والأولاد الذين حرموا من آبائهم, لم يمهلها الجبار الأكبر كثيراً, إذ فقدت ابناً كان يدرس في الجامعة في حادث سير.. قد يكون هذا الخبر طبيعياً, ولكن بعد عام فقدت الابن الثاني, أما ابنها الثالث والأخير (فيصل) فقد ظهر أنه عقيم لايـُنجب أولادا, وهكذا كتب الله على هذه العائلة الفناء, فماذا ستفعل السارقة بالمال المُستلـَب؟

الصاعقة

في صباح ذلك اليوم, 24 كانون ثاتي 1983, وحوالي السابعة صباحا, كان دوري في عمل السخرة, أي دوري في خدمات المهجع, حيث كانت أعدادنا كبيرة, وبالتالي كنا نوزع الخدمات, مثل إدخال الطعام إلى المهجع -وما أدراك ما إدخال الطعام- والخدمات الداخلية, مثل توزيع الطعام في الصحون, والجلي, وتنظيف الأرض, وتنظيم الدور في الدخول إلى دورة المياه الوحيدة لمائة شخص أو أكثر, وسخرة صب الماء, لأن الماء قليل جدا, ويصب أحدنا الماء بالإبريق وبحذر لعدم الهدر, حتى يتمكن الآخرون من تغسيل أيديهم أو الوضوء, وتحديد أماكن النوم ضمن المهجع بمسافة حوالي الشبر لكل شخص ...

نعم .. كان دوري صباحا في سخرة صب المياه لإخوتي في المهجع, وإذ بالشيطان (الرقيب) يقف على باب المهجع, ويفتح النافذة الحديدية الصغيرة, ويخاطب رئيس المهجع: اسمع هذه الأسماء, ومن كان موجودا عندك فليجب بـ "حاضر", وبدأ يقرأ الأسماء..

كانت الأسماء كثيرة, عرفت بعضها وكثير لم أعرفه, إلى أن قال حسام الدين..

تسمرت مكاني, وقع الكأس من يدي, وأحسست صاعقة نزلت على صدري.. خرجتُ من حجرة الحمام حيث كنت أصب الماء, وبحثت عن حسام في الناس, كان يقرأ القرآن مع صديقه في الجامعة سابقا "موفق".

كانت الأسماء كثيرة وعدد الذين صدرت أسماؤهم من مهجعنا فقط أحد عشر شخصا, بينهم ثلاثة أطباء هم "محمد نينو" من إدلب, و"محمد عاكف رستم" من اللاذقية, وأخي حسام.

لم ندر لماذا أذيعت الأسماء, وفيمَ يخرجون!

قال الرقيب من الخارج بصوت آثم حاقد: أحضرهم أمام باب المهجع وليكونوا جاهزين للخروج.

انتابنا القلق.. كان يوم برد قارس من أيام منتصف الشتاء في كانون الثاني.

لم يدر هؤلاء الأحد عشر أين ذاهبون! فلبس كل واحد جميع ثيابه تحسبا لرحلة طويلة, لأننا كنا لانملك من الثياب إلا اليسير, فمثلا أنا كنت ألبس كنزتي الشتوية طيلة فصل الشتاء لمدة خمسة عشر عاما حتى ترققت وأصبحت كالورقة من الاهتراء, لأنني كنت لاأملك سوى كنزتين

استعملتهما طيلة مدة سجني, وكنا نخيط اللحاف بشكل الكيس حتى يكون مفرشا وغطاءً لقلة الحال.

تقدمت من أخي وأعطيته "جاكيتي" الوحيد, وقلت له البسه فأبى, فأصررت عليه, فلبسه, قلت له عسى أن يكون الأمر خيرا إن شاء الله, لم أذكر أنه علق بشيء, كان صائما, تسحرت معه في تلك الليلة لقمتين من الفروج المسلوق مع قطعة خبز لاتكفي طفلا صغيرا, طبعا ونحن مستلقون في وضعية النوم, فالسحور والصلاة في قانون السجن جريمة قد تكلف صاحبها حياته.. وكان بفضل الله أول من حفظ كتاب الله غيبا, فخرج صائما حافظا.

اصطفّ رتل الأحد عشر سجينا قرب باب المهجع ينتظرون قضاء الله, لم يطل الانتظار, حضر حشد كبير من الشرطة, فتحوا الباب, وكالعادة كما علّمونا استدرنا جميعا ووجوهنا إلى الحائط في جمود كامل كالأخشاب, وقال الرقيب "لبرّه".

خرج الرتل وأغلق الباب الحديدي, أسرع أحد الإخوة يسترق النظر من ثقوب صغيرة بالباب, قال "إنهم يقيدون أيديهم خلف ظهورهم", ثم عاد الرقيب وصاح "رئيس المهجع هات بشاكير- أي مناشف- " وفتح الباب وأخذ المناشف, فعاد الأخ المراقب وقال "إنهم يعصبون عيونهم بالمناشف", ثم مضوا بهم.

جلس الجميع وقد عقدت الدهشة ألسنتهم, وبدأنا: منا من يلهج بالدعاء ومنا من يقرأ القرآن, ومنا المترقب في وجل... طال الانتظار, وبدأ التهامس, فمن قائل ربما محاكمة, وآخر يقول تحقيق, وآخر يقول يأخذونهم إلى دمشق.. وآخر صامت.. وكثرت التحليلات والتوقعات, ولكن كان هناك هاجسٌ مرعبٌ في نفس كل واحد منا, لم يجرؤ أحد بالبوح به.

أصبح الوقت ظهرا ثم عصرا, ثم أذَّن المغرب, ولاخبرٌ ولا أثر, نظرت إلى السماء من طاقة السقف المشبوكة بقضبان الفولاذ الثخينة.. لا أنساها.. كانت ملبدةً بالغيوم رماديةً مكفهرةً قاتمةً حزينة.. أحسست أن السماء تبكي.. نعم لا أنسى هذا الشعور.. وأحسست أنها محتقنةٌ بقطراتِ المطر وتحبسُ دموعَها.. أحسستُ أرواح إخواني ترفرف فوقنا.

وقد قرأت فيما بعد أن بكاء السماء حق, فقد ورد في الأثر:

عن سُدي: لما قتل الحسين بن علي رضوان الله عليهما بكت عليه السماء, وبكاؤها حُمرتُها.

كما ورد في القرآن الكريم أن السماء والأرض لم تبكيا على فرعون وقومه عند هلاكهم, ويفهم من ذلك أنها تبكي على المؤمنين:

(كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوماً آخرين . فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين) الدخان 29.

الجميع أدرك الحقيقة, ولم أعد أذكر من الذي كسر جدار الصمت في ذلك اليوم, ولكني أذكر حين قال أحدهم "الله يرحمهم".. لم أصدق ما أسمع! هل أنا في حلم رهيب أو كابوس؟ هل مات أخي حقا؟ صباحا تسحرنا معا! أوهكذا تزهق الأرواح بكل بساطة وفي صمت؟ أوهكذا يغتالون الإنسان بكل برودة دم وأعصاب؟ أوهكذا ترتكب الجريمة باسم القانون؟ في لحظة أو دقائق يسرقون آمال الآباء والأمهات وتعبَ السنوات! لم أكن أصدق ماجرى..

أقبل "أبو عبد الله" - وكان محبوبا وله شأن واحترام في المهجع - لعندي وأمسك بكلتا يدي وقال "الله يصبرك على مصيبتك" وبعد قليل أُعلن لصلاة الجنازة على الغائب.

صلينا صلاة الغائب على أحد عشر أخا كانوا بيننا قبل ساعات, أحدهم شقيقي.

قال "موفق" كنت أقرأ القرآن مع حسام, وكان آخر ما قرأه هذه الآيات من سورة آل عمران: "قل اللهمَ تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء, بيدك الخير إنك على كل شيء قدير, تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب".

حان وقت المغرب وجلسنا لنأكل طعام الإفطار, قال أصدقائي: "أفطِر يا أبا هشام".. وضعتُ لقمة في فمي وحاولتُ أن أبلعها, لم أستطع أحسست أنها علقت في صدري وأن حلقي كان مغلقا ومعدتي متشنجة, ولم تنزل اللقمة, وانتهى إفطاري.

أخونا عبد الوهاب رسم تفاصيل هذا اليوم بريشته الدقيقة:

أحباءَ قلبي: هدَّني الحزنُ بعدَكمْ فصدري ثقيلٌ, والفجيعة تـقـتلُ
تهبُّ رياحُ الموت صفراءَ فجأة ومن غير إنذار: تـحـُلُّ النوازلُ
ونادى نذيرُ الشر أسماءَ إخوتي فألقيت سـمعي, والفؤادُ يُسـجِّلُ
وأصبح وجهي للجدار ملاصـقا وجسـمي بـتـمـثال أصم مُبـدَّلُ
أقول لأحبابي عســاهم لمحكمة لأدفنَ إحسـاسـا عميقا يُشـَعـَّلُ
شبابٌ رأوا جناتِ عدنٍ في الرؤى يقينا وضوح الشمس تبدو الدلائلُ

وجوهٌ من الفردوس نضَّرها الهدى وروحٌ وريحانٌ وعطرٌ قرنفلُ

صباحٌ عصيبٌ أفسد الشرُّ صفوَه كئيبٌ, بأثقال الهموم مُحمَّلُ

يُقالُ: جِثِيًّا في الزوايا جميعُكُمْ ويصطفُّ رتلٌ والوداعُ مُعطَّلُ

ويخرجُ أحبابي وتنهلُّ دمعتي بكاءا مريرا والعيون نواهل

ونادَوا: مناديلا لعصب عيونِهم ولكنَّ نورَ الله أقوى وأمثَلُ

وهذي قيودُ الظلم شُدَّتْ بمِعصمٍ لتقييد عملاق يُزَفُّ ويُقبِلُ

بقلبٍ تحدّى سطوة الظلم كلَّها فراح من الأعماق حمدا يُهلِّلُ

ويمضي إلى الأعواد نسرا مُحلّقا يُدوِّي بتكبير عنيف يزلزلُ:

شهيدٌ إلى الفردوس, ذلك مطمحي وحسبي لدين الله أحيا وأقتَلُ

قوافل الشهداء

كانت حادثة استشهاد أخي ومجموعتِه التجربة الأولى لنا من حلقات الإعدام وذلك بعد سنتين من دخولنا سجن تدمر, وكانت قبل ذلك قد توقفت لعدة أشهر لأسباب لا نعرفها, ولذلك فقد أخذ شهداؤنا على حين غرة ولم يتسنَ لنا وداعهم ولم يصلوا صلاة الشهادة والدعاء قبل اللقاء.

بعد ذلك توالت الحلقات بسرعة, فكانت تحضر لجنة القتلة السفاحين ثلاثة ايام في الأسبوع: كل سبت واثنين وأربعاء, في الموعد المحدد صباحا, بين السابعة والثامنة, وبدون انقطاع لمدة ثلاث أو أربع سنوات, ويتكرر معها هذا المشهد, جولة على المهاجع, وقراءة أسماء, ولكن كان يتسنى للإخوة الخارجين إلى الشهادة بعض الدقائق للوضوء وصلاة الشهادة والدعاء ووداع إخوانهم.

عشنا هذه السنوات في حالة ارتقاب مستمرة, فكنا لا ندري الدور القادم لمن؟ والقائمة القادمة من سيكون فيها, فكلنا مرشحون بقوة, وأنا شخصيا بقيت سنة كاملة أنتظر خروجي إلى الإعدام ثلاثة أيام من كل اسبوع منذ الصباح الباكر, فأنوي الصيام وأصلي ركعتين لله, وألبَسُ الرث من ثيابي, على احتمال أن هذه الصلاة قد تكون آخرَ عهدي من الدنيا... ولكن الله لم يكتب لي الشهادة, ربما لم أكن قد وصلتُ إلى ذلك المستوى, فالشهادة هي اختيارٌ من الله لعباده, "وتلك الأيام نداولها بين الناس, وليعلمَ الله الذين آمنوا منكم, ويتخذَ منكم شهداء".

والمواقف كانت كثيرة, فقد ودعتُ العشرات وهم يخرجون أمام عيني إلى حبل المشنقة, وكانوا كلُّهم هادئون, تعلو شفاهَهم بسمةٌ رقيقة.

أذكر مرة كنت أودع "محمد صوان" وكان طالبَ طب من خان شيخون, وكان صديقا لأخي حسام, فعانقني والبسمةُ في وجهه.. فقلت له "يا محمد أبلغ أخي حسام مني السلام", فأومأ برأسه وتبسم وقال "نعم"..

وأذكر كذلك حسين رفاعي طالب طب من خان شيخون, ومنذر سراج طبيب أسنان من دير الزور, ومحمد سهل صالح مخبري من اللاذقية.. والقائمة طويلة.. ونسيت أسماء الكثير.. وأعتقد أن عدد الذين خرجوا إلى ساحات الإعدام في تدمر عشرة آلاف إنسان على أقل تقدير, إذ كانت الدفعة تتراوح وسطيا بين 50 و 100, بثلاثة أيام في الأسبوع, وعلى مدى أربع سنوات.

كان أحدهم يسارع إلى لبس أسوأ وأبلى ماعنده من ثياب, ليؤثر إخوتـه من بعده بالبقية مما بقي من رمـَقٍ من ملابسه, فالحيُّ أولى من الميت.

كان الجلادون يدورون السجن ابتداءا من الساحة الاولى وانتهاءا بالسابعة, وهم يقرؤون الأسماء على المهاجع وذلك يستغرق حوالي ربع ساعة, ثم يعودون بعد انتهاء الجولة, فيجمعونهم من مهاجعهم ويقودونهم إلى ساحة الإعدام, ويُجلِسونهم على الأرض, مقيدي الأيدي خلف ظهورهم, معصوبي الأعين, وتبدأ عملية التنفيذ تباعا, فوج وراء فوج, كل ثمانية معا وكثيرا ما يتجاوز عددهم المائة, وقد يستغرق الأمر ساعات, فماذا تتخيلون حالَ الذي ينتظر دوره في الأخير؟

كانت المشنقة بشكل الرافعة مزدوجة الجانبين, أي مثل كفتي الميزان, يُخِفضونها من جهة فترتفع من الجهة الأخرى, يضعون الحبل في عنق السجين وهو واقف على الأرض, ثم يخفضون الطرف المقابل له إلى الأسفل, فيرتفع من رقبته إلى الأعلى ويعاني من سكرات الموت حتى يموتَ خنقا وتسكنَ حركته, بعد ذلك يقطعون الحبال, فيهوي جسد الشهيد ويرتطم بالأرض, ثم يحضرون الوجبة التالية, رحمهم الله جميعا وتقبلهم مع الشهداء.

بعد انتهاء المجزرة يأتي احتفال لجنة الضباط القتلة الذين يغادرون الساحة وهم يشبكون أيديهم ببعضها ويدبكون ويرقصون ويغنون, على إيقاع حشرجات الموتى وغرغرة الروح! هل هؤلاء بشر؟

وأخيرا تدخل الشاحنة العسكرية, وكان الذين في المهاجع المجاورة لساحة الإعدام يسمعون صوت ارتطام الجثث بالأرض عندما يقطعون حبل المشنقة فتهوي إلى الأرض, وصوت الجثث وهم يرمونها أكواما في الشاحنة العسكرية, ليخرجوا بهم ويدفنوهم في مقابر جماعية في الصحراء.

أما "أبو عبد الله" ذاك الذي كان أول من عزاني بأخي فقد كانت له حكاية اخرى:

في الحقيقة, بعد استشهاد الدفعة الأولى والتي كان فيها أخي, وبصدمة المفاجأة أصابنا شيء كثيرٌ من الإحباط والحزن, وانهيارٌ في المعنويات, فقد كنا نعيش في شيء من الأمل وترقّبٍ لفرج قريب بين ليلة وأخرى, أو ننتظر معجزة ما, وما كنا ندري أننا نواجه عدوا حاقدا إلى هذه الدرجة, أو أنها سوف تطول بنا السنوات, فجاءت هذه الضربة وسحقت آمالنا, وأصبحنا نحسّ أننا ننتظر الموت فقط, ونعيش على لاشيء, يودع بعضُنا بعضا..

هنا جاء دور أبي عبد الله, وهو من خان شيخون, فراح يذكرنا بما أعده الله للصابرين, وقصص الصحابة, وقدر الله المُحكـَم في هذا الكون بأسلوب لطيف محبب.. واستطاع بمدد وتوفيق من الله, أن يشحذ الهمم والعزائم, وينهضَ بنا من هاوية اليأس والمرارة, لنحلـّقَ في عالم الملكوت الأعلى, ونشعرَ أن الملائكة تعانقـُنا وتطيـّبُ خواطرَنا, وتستقبلُ شهداءَنا بالحفاوة والتكريم, ورحنا نرنو إلى الصحابة والنبيين, ونستذكرُ أنما هذه الحياةُ الدنيا متاعُ الغرور, وأن مردَّنا جميعا, سواءا طال أم قَصُرَ إلى الحاكم الذي يفصل بين عباده ويقضي بينهم بالحق.

واستطعنا بدفقات الإيمان وكلمات الله أن ننتصرَ على أحزاننا وآلامنا, ونستمدَّ طاقة عجيبة من الصبر ثبَّـتَـتْـنا لسنوات طويلة..., وعاد اليقين قويا راسخا في قلوبنا.

كان أبو عبد الله أحد الذين أذيعت أسماؤهم للإعدام ذات صباح, هو وتسعة من إخوتنا في نفس المهجع, تدافع الناس لوداعه, وكالعادة صلوا صلاة الشهادة ودعوا الله أن يغفر لهم ويتقبلهم شهداء, وجلسوا ينتظرون التنفيذ!

ولكن هذه المرة لم يحضرِ الجلادون!.. ومضى الوقت والساعات.. ثم انقضى النهار وحلَّ الليل.. كان هذا الحدث لغزا جديدا علينا, لم نعرف جوابه! لماذا انصرف الجلادون, ولماذا لم يخرج أبو عبد الله ورفاقُه إلى الإعدام؟ هل انقضى الأمر أم أنهم سيعودون غدا أو بعد غد؟ أسئلة كثيرة كانت تدور في أذهان الجميع, ولا أحد يملك الجواب!

نام أبو عبد الله وإخوته, ولست أدري إذا كان النوم قد أدرك مقلتَهم؟ المهم أنه مضى ذلك اليوم ولم يحدث شيء.

ترقبنا اليوم الثاني فلم يحدث شيء أيضا, وكذلك الثالث ثم الرابع والخامس, حتى كدنا ننسى الموضوع!

كان أبو عبد الله يمشي بيننا, وقد حجز تذكرة السفر, ولكنه لايدري متى الرحيل, ولكنه كان يتوقع أنه قريب على الأغلب!

كان يقول لأصحابه الثمانية دعونا نبقى معا, فإننا ذاهبون معا في مركب واحد, ويضحك ويقول لنا: "إذا أردتم أن تنظروا إلى أحد من أهل البرزخ فانظروا إلينا", فنحن بين الدنيا والآخرة.

"أبو مخلص عطوة" أيضا من خان شيخون كان من مجموعة أبي عبد الله التي تنتظر موعدها مع الآخرة بين عشية وضحاها, وكان مدرسا, ولديه إحساسٌ مرهف ومـَلـَكـَةٌ شعرية, وألـَّف عدة قصائد, أنقل إليكم هذه الأبيات الحزينة, التي يتكلم فيها بلسان الولد الذي يسأل أمـَّه عن أبيه الذي غاب, ومتى يعود؟:

أماه يـكـفـيك البكاء على أبي فوســادتي ضجَّت لقلب مُـتـعـَـب

إني أحِسُّ النار تكوي وجنتي من قبلتـَيكِ في الضحى والمغرب

أين الذي أكتافـُهُ أرجـــوحةٌ أحبو عليها كلاعب في ملـعـــب

قد طال وقت غيابِه عن ناظري ومســامعي في لهفة وترقـــّـُــب

رُدِّي عليَّ فإن قـلـبـي مُتعـَـبٌ يـهـواك يا أمي كما يهوى أبـــــي

في إحدى الليالي جلسنا والوجوم يخيم علينا.. أراد أحد الإخوة المنشدين أن يخترق جدار الصمت, فاختار قصيدة لأبي مخلص كان أبو مخلص قد صاغها سابقا لإخواننا الشهداء, وراح ينشدها بصوت عذب رقيق:

يا جنـان الخـُلدِ تيهي عجبا واسـتعدِّي للقـــاء الشــــهـــدا

إخوتي أرواحُهُم في مهجعي كورودٍ عانقتْ قطــــــرَ الندى

لم يـُبـَـالوا بـعـدوٍّ ظــالـــمٍ نصبَ الأعوادَ في ساح الفدى

إنما أعــــوادُهُمْ أرجوحـَتي أمتطيها حين أبغي السـُــؤددا

ألقيت نظري على أبي مخلص وهو يستمع إلى قصيدته التي ألفها بنفسه, وهو يخاطب الجنة أن تتهيأ للقاء الشهداء! كان مطرقا ساهما والدموع تترقرق صامتة في عينيه.

بعد أسبوع حدث ما كنا ننتظره, جاء الجلادون وقرأوا الأسماء ولكن هذه المرة كانت نافذة.

والله لا أنسى وجه أبي عبد الله, وكأني أراه أمامي الآن: ضحكة عريضة, نور يضيء وجهه, هدوء واطمئنان لا يصدَّق.. وانكب أفراد المهجع عليه يقبلونه ويعانقونه, ودّعتُ أبا مخلص فقد كنتُ صديقا مقربا منه .. ودّعـْنا التسعة وودعونا, وخرجوا إلى لقاء ربهم.

المواقف كثيرة وكثيرة..

محمد خير .. واحد من الذين خرجوا أمامي .. صلى ركعتي الشهادة, ثم وقف أمامنا وقال: "والله إني أشم رائحة الجنة". نعم أقسمَ بالله أنه يشم رائحة الجنة.

أحدهم بعدما خرج إلى قبضة الشرطة.. كل أفراد المهجع سمعوا الشرطي يسأله: "هل تعلم إلى أين أنت ذاهب؟" .. فأجابه الأخ بصوت راسخ ثابت: "نعم أعلم.. ذاهبٌ إلى الجنة".

وأبو عبدو الحموي (أبو دان), تأخر عليه الجلادون وهو في الانتظار بعدما تـُلـيَ اسمـُهُ, وقد شُـغِـلوا بأمر ما, ولما طال الانتظار جلس أصدقاؤه يسامرونه, بل وقدموا له الفاكهة, فأكل منها وهو يمازحهم وكأنه ذاهب إلى نزهة في هدوء واطمئنان, وانتظر عدة ساعات عودة الجلادين.

سعيد: ذلك الشهيد الحي, تـُلي اسمه أيضا في نفس الأوقات الموافِقة لتنفيذ الإعدامات, صلى الشهادة, وجلس ينتظر, ومضت الساعات ثم الأيام والرجل يرتقب قدوم القتلة في أي حين, ولكن الله شاء له أن لا يعود إليه الزبانية, وأن يمنّ عليه بعد ذلك بالفرج والخروج من السجن, وقد كلمتـُهُ منذ فترة قريبة, وهو حي يرزق, فسبحان الله.

مخلص قنوت صديقي في الجامعة والذي أطلقوا عليه النار في مشفى المواساة, كان يتوقع لحظة الشهادة, ولكنه أبى أن يسلم عنقـَهُ إلى حبل المشنقة, وعندما أذيع اسمه خرج من المهجع وهاجم الشرطة رغم عرجه وقاومهم, ولكنهم تكالبوا عليه, وأخرج أحدهم الموسى من جيبه وذبحه أمام باب المهجع, وتركوه يتخبط في دمه.

يوسف عبيد شاب لطيف منخفض الصوت, هادئ, من عين الفيجة في دمشق, كان يعرف حكمه بالإعدام لأنه من التنظيم المسلح, وروى لنا أنه في إحدى مهماته التي كان ماضيا بها, لاغتيال رجل قذر من المخابرات, وعندما سنحت الفرصة, ظهر الرجل وهو يحمل طفلا صغيرا بين يديه... لم يستطع يوسف تنفيذ المهمة, لأنه خشي أن يصيب الطفل.. نعم فشلت الخطة بسبب إنسانية هذا الرجل المؤمن والذي لقي ربه دون أن يقتل نفسا بريئة.

واليوم يـُقتل الأطفال بالآلاف.. ذاك تاريخنا وهذا تاريخهم!

بسام بريك

أما بسام, ذلك المجاهد البطل, فقد كان ضاحكا مسرورا, قال: "لاتحزنوا يا إخوتي فإني مستوفٍ حقي منهم سلفا".. (إذ أنه كان من الذين جاهدوا وحملوا السلاح وفعل بهم الأفاعيل) ثم وقف ينشد هذه الأبيات التي كان قد ألفها سابقا (فقد كان شاعرا أيضا, وله قصائد أخرى):

طال اشـــتيــاقي للحبيب محمد يا نفسُ طيـبي فاللقا قد حانـــا
هذي الملائكُ والصحابةُ حولـَــه ورجالُ صدقٍ بايعـوا مروانـا

حفوا بساطَ الموتِ في شوقٍ لنا والحورُ تـنـشـد خلفهم ألحانا

والروضُ زلفى والكؤوسُ مليئة والعينُ تجري ريحُها ريحانـا

فاثبـُت فؤادي لا تبالِ بـمـيـتــةٍ يجزيك ربي نضرة وجنـــانا

تأملوا: رجل خارج إلى الإعدام يقف ليلقي الشعر .. ألقى هذه الأبيات الخمسة, لأن الوقت لم يكن ليسمح له أن يكمل القصيدة, فالجلادون بالانتظار, وهأنذا أسوق لكم تتمة هذه القصيدة الرائعة التي يجب أن تكتب بماء الذهب, والمفعمة بقوة الإيمان والتّحدي والاستعلاء على الطواغيت:

إن الجنان على بحور مصــائب من كان يـبـغي فليـــكن ربانـا

ما فاز فيها من أناخ ســـلاحـَـهُ بجوار دنـيا خائــــفا وجبانا

لغةُ الرصاص إذا أردت فصاحة للكفر أصـدقُ حجةً وبيـــانـا

فاصدح رصاصَك في القلوب محدثا تهوِ الجبابرُ سُـــجَّدا رُهبانـا

يا حافظ الأنجاس لن أخشى الردى فاسحق عظامي وليكـن ما كانا

وابنِ المشانق من دمشق لسجننا لن تـقـضي إلا ما قضى مولانا

لما سلكتُ الدربَ أعـلـم أننــــي طـلـقـتُ دنيا تابــــعا فرسـانا

سأظل أمضي ما حييتُ مجاهدا بدمي وروحي مســـلما إخوانا

ويظل رأســــي للثريا شامخا وشـرِاك نعلي فـوقـكم تيــجانا

تجربتي مع الشعر

بعد استشهاد أخي حسام صارت تدور في نفسي خواطرُ كثيرة وتزدحم في رأسي الأفكار, وتملـَّكـَتـْني أحاسيسُ تجرفـُني وتعتصر صدري.. أريد أن أعبر عنها, ما بين المرارة بفقد الأخ وبين مرارة الواقع الذي نعيشه, فكنت أشعر أن مصيبتي مصيبتين, وكنتُ أرى آمالي تتحطم أمام عينيَّ ومستقبلي ينهار, بل حياتي كلـُّها معلقة بخيط رقيق بين السماء والأرض, والموت يُطبقُ عليَّ بين فكيه, ويكاد أن ينقض علي, فلا أجد ملجأً إلا بالعودة إلى حبال الإيمان واليقين, فأعود وأتمسك بها لأستطيع الثبات في هذه العاصفة الهوجاء..

كنت أتذكر أمي وأحاول أن أتخيل على أي حالٍ باتت تعيش بعد خسارة ولَدَيها, وماذا عسايَ أقولُ لها عن حسام إذا لقِيتـُها يوما!

بعد فترة بدأت أتمتم بأبيات بسيطة, وسالت الخواطر على لساني تحكي حالي وتروي ما كنت أفكر فيه, ولم أكن بعدُ أعرف الشعرَ ولابحورَه, فتدفقـَتْ مني هذه الكلمات بعفوية وحملت حرارة المشاعر التي تنتابني, ولم تكن شعرا قواعديا, ولكنها قريبة منه, تنطق بلسان الشهيد الذي يُصبـِّرُ أمَه ويمسحُ دمعتها:

أماه فاهنئـــــي   أماه فاسعـــــــــدي
في جنة الخلودْ   في الروض مقعدي
إنَّ ابنَك الشهيدْ   لم يرضَ أن يحيـــدْ
شعارُه الوحيــدْ   بالهادي أقتـــــــدي
الأرضُ في ذهولْ   ماذا عسى تقــولْ
والطيرُ والعقولْ   من هول المشهـــدِ
في ساحة الإعدامْ مازلـَّتِ الأقـــدامْ
وليشهدِ اللئامْ   درسَ البطولـــــةِ
بعزة النســـورْ   وجـُرأةِ النمـــــورْ
وبسمةِ الثغورْ   وقـلبِ مؤمـــــــنِ

تقدمَ الأبطـــــــالْ كأنهم جبـــــــال

وعانقوا الحبـــالْ يا نفـــــسُ فاثبتي

درسٌ من الفــداءْ بالروح والدمـــاء

بكت له السمـــاءْ يا أرضُ فاشـهدي

هناك في الفردوسْ أكرِمْ به من عرسْ

لبائعٍ للنـفـــــسْ يا حورُ زغــردي

دعاكُمُ المعبـــــودْ بأصدق الوعــودْ

إفطارُكم ممـــــدودْ بـصـحـبة الـنـبـي

زيارة أهلي

ثلاث سنوات انقضت في غياهب تدمر, لانعلم عن دنيا الناس شيئا, وعالمنا محصور بين هذه الجدران الأربعة.. كنت أفكر في والديَّ.. يا ترى هل هما لايزالان على قيد الحياة؟

هل أراهما ثانية؟ هل أموتُ فيرثيني أبي, أم يأتيني, يوما ما, خبرُ موت أبي فأرثيه!

أبتاه هل أرثيكَ أم ترثيني؟ هذا لـَعمري أعجبُ التخمينِ

في حزيران 1984 أذيع اسمي.. خرجت لاأعرف أين وجهتي, وكانت زيارة أهلي الأولى لي بعد ثلاث سنوات من اعتقالي, أما زيارتي الثانية فكانت بعد عشرة سنوات من زيارتي الأولى!

كان كل همِّي منصبا حول التهرب من الحديث عن أخي حسام, فلاشك في أنهم سوف يسألونني عنه, ولا أعرف ماذا أجيب.. فإن قلتُ أنه استشهد فسوف تكون ورطة لي ولهم, وإن قلت أنه حي سأسبب لهم زيادة في المعاناة!

أروي تفاصيل الزيارة كما كتبها أبي رحمه الله:

زيارة أسامة في تدمر في 6 حزيران 1984

استطاع شريكي "أبو سامر" أن يصلنا بابن عم رئيس سجن تدمر الذي كان صديقا مقربا منه.

كان أهل المساجين يبذلون الغالي والرخيص للفوز بزيارة أسيرهم, وكثيراً ما كان الأهل يقعون فريسة المحتالين, فيذهبُ المالُ الذي باعتِ الأمهات والزوجات مُصاغـَهُن من أجل رؤية سجينهم هباء, وكأن البلاء بسجن أحبتهم غيرُ كافٍ حتى يُبتـَلوا بالنصابين الذين هم الوحوش بعينها.

وعَدَنا ابنُ عم فيصل باصطحابي وأم أسامة بسيارته إلى تدمر, وفعلا نفذ وعده وأوصلنا إلى بيت رئيس سجن تدمر.

كنا سابقا قد طلبنا زيارة ولدَينا فأتانا الجواب بعد فترة من الوقت بأن أسامة فقط موجود, على عكس ما كنا نتصور أننا سنجد حسام في تدمر وأسامة في مكان آخر!

استقبلـَنا رئيسُ السجن وزوجتـُه, ولما سألناه عن حسام, أجابنا أنه لم يدخل تدمر. وعندما أكـّدتُ له أنه كان في تدمر بدليل أن جارا لي قد التقى ابني حسام عندما كان هذا الجار في زيارة صهره في تدمر.. عاد وأكـّدَ (كاذبا) أنه لم يدخل تدمر مما جعلني في حيرة.

استقدم فيصل سيارة تابعة له فأخذَتـْنا عبر شوارع تدمر إلى ثكنة السجن.

اجتزنا أسوار الحراسة إلى أن وصلنا غرفة متواضعة وقلوبنا تخفق بشدةٍ للقاء فلذة الكبد, وتمنيتُ في نفسي لو كان ابني في أيدي اليهود, لكان أرحم من ذلك.

بعد قليل دخل الحارس ومعه أسامة, أسامة الوردة التي رعيناها بقلوبنا.. أسامة ليس أسامة.. جسم نحيل, وجه شاحب, حليق شعر الرأس, طويل شعر الذقن كأنه لم يحلق ذقنه منذ أيام, يرتدي "بيجامة" لايعرف لها لون, ينتعل شحاطة من الصنف الحقير.

عندما تقابلت نظراتـُنا, وكنتُ وأمـُهُ قد هيأنا أنفسنا لكبت مشاعرنا, بدا أنه كان حريصاً على أن يطمئنـَنا, فبدأ بعبارة: "اطـَّمـَّنوا اطـَّمـَّنوا".. جرت المقابلة بحضور ضابطِ صف قليلِ الكلام يبدي شيئاً من اللطف, وكان الحذر بادياً على وجه أسامة, وعندما سألناه فيما إذا كان قد اجتمع بأخيه حسام نفى ذلك طبعاً, حيث لم يكن جوابه صحيحاً ولا يتجرأ أن يذكر شيئاً عنه, ولم نكن نعرف أنه لاقى ربه شهيداً على أيدي جلادي السفاح الأكبر, اتجه تخيلنا أنه في سجن صيدنايا المميز عن تدمر. استغرق اللقاء حوالي نصف الساعة أعطيناه بعض النقود وطلب ساعة فأعطيته ساعتي.

عدنا إلى بيت رئيس السجن وجرى حوار بيني وبينه حول حرمان الأهل من الزيارة وقسوة هذا الحرمان بالنسبة للأم, فقال فيصل يجب تحمـُّل ذلك في سبيل الوطن, هنا قاطعته بانفعال: ولكن ما هو الوطن؟ الوطن ليس التربة التي نمشي عليها فقط , بل هو ابني وأخي وجاري..

البلاء عام (ولايزال الكلام لأبي)

لا تخلو عائلة في سورية من سجين قريب, كأخ أو ابن أو زوج أو أب, أو سجين في العائلة السورية الكبيرة, فالمهم أن يكون الشعب السوري مقيداً برهائن غالية عليه فلا يستطيع حتى الاحتجاج.

في البناية التي كنا نقطنها كان هناك ضحايا غيرُنا, فالطابق الأرضي كان يسكنه معلم (أبو مصطفى).

اعتقل أبو مصطفى وترك نصف دزينة من الأطفال بدون معيل, وكانت ابنته الكبرى تزوجت حديثا, دوهم المنزل من قبل مفرزة مخابرات بقيادة رئيس المخابرات بنفسه, وجرى تبادل إطلاق النار وسقط ضابط قتيلا, واختلفت الأقوال عن العروس وأخت زوجها التي كانت في المنزل, فلم يُعرف هل قُـتِلَـتا أم أخِذتا حيَّـتين, وقيل أن العروس هي التي قتلت الضابط , الخلاصة أنه لم يعد يسمع عن البنتين أي خبر.

كان ابن خالة أبي مصطفى يسكن في قسم من نفس الشقة, وكان يعمل في إصلاح البرادات, وكنت أشعر بأن من واجبي أن أمد يد المساعدة لعائلة أبي مصطفى التي فقدت معيلَـها, فاتصلتُ بهذا الشاب وطلبت منه أن يوصل مبلغاً من المال إلى عائلتة, فأبى بأنفة وقال إنه يعمل ويستطيع إعالتهم.

لم يمض وقت طويل حتى اعتقل هذا الشاب, وبعد سنوات طويلة أفرج عنه بسبب مرض عضال ووصل إلى أهله ميتاً وقيل أن جسده كان يحمل آثار التعذيب.

كان الإرهاب والخوف قد وصل حداً مع الناس أنهم أصبحوا يخشون التبرع للعائلة التي سُجن معيلها, لا بل حتى يخشون توصيل مبلغ من المال إليهم, وهذا ما حصل معي عندما أردت أن أوصل معونة شهرية لعائلة في مدينة أخرى, فلم أجد أحدا يتجرأ ويوصل المال لهم.

مؤمن

بعد ان استقر بنا المقام وصارت الأيام تمشي على وتيرة ثابتة متكررة.. في إحدى الأمسيات, وبعد أن انتهى مشوار اليوم من لقاءات الشرطة, وبدأنا نخلد إلى الليل والهدوء.. سمعنا باب الساحة الحديدي يفتح, ويقبل شرطي ويصيح: "أسامة هشام"..

تجمد الدم في عروقي.. إنه اسمي.. نعم.. ماهذه المفاجأة المسائية؟ ماذا يريدون في هذا الليل؟

صاح رئيس المهجع: حاضر سيدي, إنه عندي هنا.

على الفور فتح الرقيب باب المهجع, ولم يمهلني ولا دقيقة واحدة, وقال " اخرج".

سرتُ معه, لاأدري إلى أين أسير؟ كل الاحتمالات مفتوحة..نقل إلى دمشق أو فرع التحقيق.. ممكن.. زيارة في هذا الوقت المتأخر.. مستبعدة.. إعدام يا ترى؟ عادة حفلات الإعدام يجرونها صباحا.. ماذا عساه يكون؟؟؟ كان القلق في أوجِهِ.

وصلتُ إلى إدارة السجن وأدخلوني غرفة فارغة, هي للتعذيب, وأجلسوني على الأرض, ورأسي مطرق.

تقدم نحوي أحدهم, وطبعا لم أجرؤ على النظر إليه, ودخل في الموضوع بدون مقدمات:

- ما علاقتك بمؤمن صلاح؟

سؤالٌ أعادني إلى الوراء سنوات... يا إلهي ألم ينتهِ عهد التحقيقات منذ زمن بعيد؟ ها قد عدنا من جديد! وسندخل في هذه الدوامة من جديد.. إنكار وتعذيب وانتزاع اعترافات.. يارب استوينا.. يارب حاجة..

- علاقة طلاب جامعة.
- أقصد علاقتك التنظيمية معه؟

في الحقيقة كان مؤمن صديقي في الجامعة, وكان متدينا طيبا, ولقاءاتي به كانت عادية ومصادفة, ولا تتعدى حدود المودة.

- يبدو أنك لن تعترف.. وهوى بالكرباج الثقيل غلى ظهري, فأحسست بسيخ من النار يمشي في ظهري..

لمحتُ بأطراف عيني الشرطة حولي, وكانوا حوالي ثمانية أو عشرة.. لاأستطيع أن أحدد العدد, ولكنهم كانوا كثر.. كنت أرى أحذيتهم العسكرية فقط.. كانوا كالذئاب الجائعة التي تتحين الفرصة للانقضاض على فريستها, وينتظرون الإشارة من المحقق حتى يبدؤوا عملهم.. أحسستُ أنها لحظة فصل بين الحياة والموت, فربما أكون بعد دقائق في عداد الموتى...

استجمعت قوتي وشجاعتي وأحسستُ أنها فرصتي الوحيدة أن أخاطبه بالمنطق فقلت له: يا سيدي هل تسمح لي بكلمة؟

- نعم؟
- إذا أردتَ الصدقَ والحقيقةَ فسوف أخبرك بها, وإذا أردتَ تعذيبي فسأقول لك ما تشاء.
- صمت برهة, ثم قال: أريد الحقيقة..

سبحان الله.. لا أدري من أين جاءتني السكينة والهدوء.

- فالحقيقة إذن يا سيدي انه صديق لي في الجامعة, وزرتُهُ مرة بمناسبة العيد, وردَّ لي زيارتي في العيد التالي, هذا هو كل ما بيني وبينه.
- يعني ما في تنظيم بينكما؟
- أبدا يا سيدي.

اكتفى بهذا القدر من الأسئلة, وقال أعيدوه إلى المهجع.

لم أصدق ان التحقيق انتهى بهذا الشكل اللطيف, وأن يقبل المحقق جوابي بهذه السهولة, وحمدتُ الله أن نجاني في هذا الموقف, وشعرتُ أن دعاء أمي كان يرافقني طيلة الوقت, وكذلك شكرتُ الله أنني لم أضطر إلى لصق تهمة التنظيم بمؤمن, فلو أنهم ألحوا علي في التحقيق والتعذيب, لاعترفتُ عليه أنه معي في تنظيم الإخوان, بل هو رئيس التنظيم والقائد المسلح, والذي يشاؤونه أن يكون!

حتى في طريق عودتي إلى المهجع, فإن الله سخر لي رقيبا كان مسالما نسبيا, وكنا نعتقد أنه نصراني, فلم يمسسني بسوء, وهكذا انقضت تلك الليلة بسلام, وكان ذلك من أفضال الله علي.

تدمر والعصر الذهبي

جمعونا –المساجين من كل المهاجع- في الساحة الرئيسية في السجن, وجلسنا كل مهجع في ركن, ننتظر الحدث المرتقب الجديد!

أطل علينا "بركات العش", مدير السجن الجديد, وقال ارفعوا رؤوسكم وانظروا إلينا, فلم نتجرأ في البداية, فهذا أمر لم نعهده منذ دخول السجن, ثم بدأت ترتفع الرؤوس واحدا تلو الآخر, ورأينا أفراد الشرطة الذين ولغوا في دمائنا, كيف يحاولون التواري والتخفي من نظراتنا وقد بدا عليهم الغيظ, ثم تكلم عن قوانين السجون, وأنه سيسعى لتأمين حقوقنا, ثم سألَـنا عن احتياجاتنا!

كان الدرس السابق مع فيصل غانم لايزال حاضرا في ذاكراتنا, فلم يطلب شيئا أحد!

كرر "بركات" السؤال, ولما لم يردَّ عليه أحد, أشار إلى أحد المساجين وطلب منه الوقوف, وكانت ثيابُه رثة ممزقة, فقال له بغضب: "أنت يا هذا ماذا عندك من الثياب, أليست ثيابك هذه بالية؟" فقال: "ماعندي شيء سيدي".. فقال "ولماذا لا تطلب؟" ثم تابع "من أيضا غيرُه يحتاج إلى ثياب؟"

حينها دبت الجرأة في بعض منا, وبدأوا يرفعون أصابعهم, فالتفت إلى الشرطة وقال "سجلوا أعدادهم عندكم وأحضروا لهم "بيجامات"..., والشرطة تحصي العدد من كل مهجع وتسجل.

ثم سأل ماذا تريدون ايضا؟, فمنا من طلب إتاحة الزيارات فأجاب أنه سيطلب لنا ذلك, ووقف آخر وقال له: "يا سيدي أنا محكوم براءة, فلماذا أبقى هنا؟" فقال له أنه سينقل أمره إلى الجهات المعنية وليس له علاقة بتنفيذ الأحكام.

كان معي في مهجعي رجل مسنٌّ فوقف وقال: "يا سيدي إن ابني مسجون معي في هذا السجن, ولكنه في مهجع آخر, وأنا رجل مسنّ, فهلا نقلتَه إلى مهجعي كي يعينَـني".. فأمر الشرطة أن يتوجهوا إليه ويسجلوا اسم ابنه!

كنا مذهولين وفي ريبة, ماذا جرى؟.. هل يعقل أن هذه المعاملة تحدث في تدمر؟ هل هي مقدمة لإطلاق سراحنا؟ أم أن في الأمر مكيدة كالعادة!

بعد يومين حضر الشرطة وبدأوا يوزعون الثياب على المهاجع, كلٌ بالعدد المسجل في القائمة.

بعد ذلك فتح باب مهجعنا, وإذ بشابٍ غريب, يبدو واضحا من ثيابه, وحلاقة رأسه, وهزالة جسمه, أنه سجين مثلُنا, وكان هذا الشاب ابن ذلك العجوز, وكان لقاء الوالد بابنه لقاءا ممزوجا بالفرح والأحزان.

كذلك تحسَّنَ الطعام كما وكيفا, وأصبح الضرب بقدر محدود ومراقبا.

اجتماع المسؤولين الصحيين

بعد أيام حضر الرقيب وطلب المسؤولين الصحيين لاجتماع, وكنت أنا الممثل عن مهجعي, وجمعونا في ساحة صغيرة وحضر "بركات العش" مدير السجن, وسألنا عن حاجاتنا الطبية.

أذكر أن أحد زملائي طلب لقاحات للأمرض السارية كالسل والتيفية, فأبدى بركات اهتماما وقال للرقيب اسأل عن إمكانية توفير لقاحات ضد هذه الأمراض, فذلك أفضل من إنفاق الأموال الكثيرة على علاجها!

وصل الدور لعندي, فقال لي "وأنت ما يلزمُك؟".

- يا سيدي لديَّ أعداد كبيرة من الذين يعانون من أوجاع الأسنان, وكثير منهم يحتاج للقلع.

- ومنذ متى لم يحضر طبيب الأسنان إليكم؟

فكرتُ قليلا لثوان, ماذا أجيب, والشرطة واقفون يسمعون ويراقبون, ونحن مستضعفون لانأمن غدرهم, وفي حقيقة الأمر فإننا لم نشاهد طبيب أسنان منذ دخولنا السجن أي منذ ثلاث سنوات, فاجتهدت أن أخففَ من نقمة الشرطة عليَّ وأقللَ الفترة لكي لا يبدو طلبي كشكوى ضد طبيب الأسنان, فأجبتـُهُ منذ ثلاثة أشهر, أي أنني اختصرتُ الفترة من ثلاث سنوات إلى ثلاثة أشهر.

- ماذا تقوووول؟ منذ ثلاااااثة أشهر؟؟؟؟ قالها بانفعال واستغراب شديد.

لم أدرِ استغرابه واستنكاره على الثلاثة أشهر هل هي قليلة أم كثيرة!! وتوقعتُ منه أن يوبخني لأني أكثِرُ من طلب زيارة طبيب الأسنان ولما يمض عليها وقت طويل!

أحسستُ أني تورطت في الأمر, ولم يعد بإمكاني التراجع, وقلت في نفسي "ياليتني ما حكيت".

تابع "بركات" وقال غاضبا: "إيتوني بطبيب الأسنان".. بعد دقائق جاء طبيب الأسنان مهرولا, وقد خطف الشحوبُ ملامحَ وجهه, ووقف أمام مدير السجن, وقال حاضر سيدي؟

- ألا تسمع يا دكتور ماذا يقول المسؤول الصحي؟ ثلاثة أشهر لم يأتهم طبيب أسنان!

- يا سيدي لا علم لي بذلك, لم يخبرْني أحد أن هناك من يحتاج إلى طبيب أسنان.
- ماذا يا دكتور؟ وتابع بانفعال: ولم لا ترسلُ حمارا من هؤلاء (وأشار إلى الشرطة) يتفقد أحوال المساجين ويسألُهم عن حاجاتهم؟ هذا واجبكم أن تسألوا السجناء عن طلباتهم.

يرسل حمار! من يقصد يا ترى؟ الشرطي بجلالة قدره حمار؟ وهو الذي يظن نفسه إلها بين المساجين, ويصول ويجول ويقول أنا أحيي وأميت!.. يا ساتر! وصلت الأمور إلى هذه الدرجة.. حمار.. الله يلطف.

انفضّ الاجتماع وقادني شرطي إلى مهجعي وهو يتمتم: "بدّك طبيب أسنان يا كذا.. بتشوف بكره إذا رح خلي لك سن بتمَّك".

دخلتُ المهجع وتجمع أصدقائي حولي, وقصصتُ عليهم ما جرى, والتوبيخ الذي لقيَه طبيب الأسنان والشرطة من مدير السجن, فأصابنا جميعا الوجوم.. وتحسَّبْنا من انتقام الشرطة.

في صباح اليوم التالي أقبل الرقيب, سمعناه يفتح باب الساحة الحديدي, ويصرخ من بعيد كالمسعور "مسؤوووول صحي عالباب".

تعوذتُ بالله, ووقفتُ أمام الباب, انفتح الباب ووقف أمامي الرقيب وقال وهو يكتم غيظه: "أين مرضى الأسنان؟".. فخرج سبعة عشر سجين من عندي من الذين كانوا يعانون أشدّ المعاناة, وذهبوا إلى عيادة الأسنان وعادوا بعد ساعات, وتم بعون الله علاجهم ولو بشكل بدائي.

هذا الرجل (بركات العش) مع أنه ينتمي إلى الطائفة العلوية, فقد كان رجلا نزيها, إنسانا في قلبه شيءٌ من الإنسانية, اكتسب احترامَنا, ولايزال سجناءُ تدمر يذكرونه بخير, ولكن هذه الفترة الذهبية لم تستمر للأسف أكثر من أشهر قليلة, فهكذا تعاملٌ يبدو أنه لم يعجب الجهات العليا!

تجديد البيعة

عام 1985 كان موعد تجديد الانتخاب للقائد الخالد, وسرت شائعات قوية بأنه سوف يُصدر عفوا عاما بهذه المناسبة, وفعلا فقد أحسسنا الهدوء بتلك الفترة واستبشرنا خيرا, فخفَّت ضراوة تعامل الشرطة مع السجناء, ومرة أحضروا لنا الحلويات, وكان هذا من العجائب لنا, وكنا نسمع أفراد الشرطة يتهامسون ويتحدثون عن العفو العام, فشعرنا ببعض التفاؤل, بل إن بعضنا طار من الفرح, وبدأ يخطط لما بعد الفرج.. ولكن سرعان ما انقشعت تلك الغمامة الكاذبة وتبين لنا أنها كانت سرابا, ومضى الانتخاب ونجح الرئيس المفدى بنسبة 99.99% !

أخرجونا إلى الساحات وأمرونا أن نحتفل, ونهتف للرئيس, وهكذا كان, فرحنا نصيح والشرطة يراقبوننا, "بالروح بالدم نفديك يا حافظ".. "بالروح بالدم نفديك أبو سليمان".. وكان المقبور يكني نفسه بأبي سليمان, خالد بن الوليد تيمنا به, وأين هذا من ذاك؟ ويشاء الزمان أن يكشف حقيقة هذه الفئة الضالة الباغية, ويشهد العالم قصف وانتهاك حرمة جامع وضريح خالد بن الوليد في حمص على يد خليفته بشار.

في اليوم التالي, مر الرقيب أمام المهجع, وقال اهتفوا للرئيس, ونحن داخل المهجع لم نخرج إلى الساحة.

كان معنا في المهجع رجلٌ مسنٌّ اسمه "خالد طربوش" من منطقة الحفة باللاذقية, ويكنى بأبي سليمان, وكان مرحا بنفسية وروح الشباب, فحملناه على أكتافنا, والتففنا حوله, وبدأنا نردد: "أبو سليمان شو بتريد لنساوي؟".. وهو يبتسم ويشير بيده إلى البتر والقطع, ونحن نضحك, والشرطة يسمعون..

أخونا أبو سليمان هذا أصيب بعد فترة بمرض السل, فكان أبو جميل يمازحُهُ ويقول له: أنت سيف الله, لأنك على كنية خالد بن الوليد (أبو سليمان), وأنت مسلول لأنك مصاب بمرض السل.. إذن أنت سيف الله المسلول!

أنقل عن أبي -رحمه الله- لقاء والدتي مع المقبور حافظ في مناسبة تجديد الانتخاب له, والضجة التي أثيرت حول إطلاق سراح الموقوفين والعفو العام:

"موكب النساء الحزانى في 30 كانون الثاني من عام 1985

اجتمعت حشود من النساء من أهل المساجين من كل أنحاء سورية في دمشق بمناسبة الاستفتاء على تجديد ولاية الطاغية في شباط القادم, وتقدمْنَ إلى قصره في مسيرة تهتف بحياته يستعطفْنه لإطلاق سراح الأسرى, واستقبل وفداً منهن - كانت أم أسامة إحداهن- ووعدهن الكاذب خيراً قريباً, وما كان ذلك إلا خدعة لتمرير الاستفتاء."

سنوات طوالٌ ثقال

وهكذا توالت علينا السِنونَ بطيئة طوالا, ونحن في "غيابت الجب", لانعرف ماذا ننتظر, ولا لماذا نعيش, ولا ندري ماذا تخبئ الأقدار بعدُ؟ تعصف بنا الشدائدُ ورياحُ المحن, وكلما أطلَّت علينا بارقة أمل نطير معها في أحلام الحرية, ثم لا تلبث أحلامنا أن تتحطمَ على صخرة الواقع المرير, ونرى حريتـنا أبعدَ من النجوم وأقربَ إلى المستحيل.

عشرة سنوات لانعلم عن أهالينا خبرا, لاندري أأحياء هم أم أموات, وعلى أي حال يصبحون ويمسون.

أما حال أبي فهو يحدث عن نفسه:

كنتُ في مهمة في فرنسا, وكان مقر الاجتماعات في ضاحية اسمها "نيس". لايحتاج المكان إلى وصف, ويكفي أنه على الشاطئ اللازوردي الفرنسي.

في الميكروباص السياحي الذي كان يتلوى على الطريق الساحلية الذهبية, تدفقت مني هذه الأبيات:

غـزَتْ قلبي بطلعتِها وحاطـتـني برقـَّتـِها

جمـــــالٌ هزَّ أعماقي فهل أرنو لدعـوتـــها

دعـتـنـي للهوى "نيسُ" وفي عينيها ما يُسـكرْ

عروسٌ مثلُ غصنِ البانْ شراعُ الزورق المبحرْ

يكاد القلب يرتعـــشُ أنا والـكــون مندهشُ

فهل للأنفس الجرحى لأن تـهنـا وتنتعــشُ

حياتي عذابُ يا كبدي لـكـم آهـاتي يا ولدي

أأنسى أسمى أحلامي وأنسى من همُ سندي

أصرّتْ عيني أن تدمعْ فلا مرأى ولا مسـمعْ

لعهدٍ كان كالأحـــلامْ دعـوتُ الله أن يرجِع

دعوتُ الله في علني وفي سري وفي حَزَني

ليجمع بعد تفرقـــةٍ ويطفي في الجوى شجني

أنـاجيـكم أنــاديـكم ورب العرش يحـميـكم

وأنتم يا سنا قلبي بـنـفسي ألفُ أفديــكم

أسأل الله أن يرحمه ويحسن إليه كما أحسن إليَّ وإلى إخوتي, ويحتسب صبره وبلاءه في صحيفة أعماله.

عشرةُ سنوات مضت لانعرف إلا الماءَ الساخن الملتهب في الصيف, والماء المتجلد الذي يقص الأصابع في الشتاء.

عشرةُ شتاءاتٍ لم نعرف فيها دفء المواقد.

عشرة سنوات نفترش الأرض ببساط رقيق, ونلتحف غطاءً نتشارك عليه, ونسينا شيئا اسمه الكرسي أو الأريكة.

عشرة سنوات ننام كعلب السردين متلاصقين, للواحد منا مسافة بعرض عشرة سنتيمترات, وقد أجرى أستاذ رياضيات معنا عملية حسابية بسيطة, وتوصل إلى أن لو كل سكان الأرض ناموا على هذه الطريقة لوسعتهم لبنان!

عشرة سنوات لم نعرف فيها ظلامَ الليل وهدوأه, فالمصابيح منارة في المهجع على مدار الساعة (للمراقبة), والحارسُ يتبختر فوقنا بقرقعة حذائه وسلاحه.

عشرة سنوات من الجوع, ننتظر مجيء الخبز كما ينتظر الطفل العيد, ثم نجتمع لنرى كومة الخبز العسكري المدور التي وصلتنا وحجمها, لعل يكون نصيب الواحد منا أكثر من نصف رغيف ليوم كامل.. وغداؤنا كلَّ يوم البرغل الممزوج بالحصى, حتى كرهت البرغل, وما زلت أكرهه إلى يومي هذا.

عشرةُ سنوات لم يعرف أحدنا كيف صار شكله, ويحاول أن يُعمِلَ مخيلته وهو يتحرى خياله في طبق الشاي الواسع, فلا زجاج ولا مرايا, وكل الذي يعلمه أنه حليق الرأس (على الصفر والحلاقة كل أسبوع).

عشرة سنوات لا كتابٌ ولا قلمٌ ولا ورقةٌ ولا مذياعٌ ولا تلفاز.

عشرة سنوات لا نعلم عن دنيا الأنام شيئا.

عشرة سنوات نسينا فيها أن هناك جنس آخر اسمه الأنثى!

سمعنا عن إنشاء سجن جديد في صيدنايا, وأنه للسياسيين, وأنه سجن خمسة نجوم, فيه تلفزيون وراديو, وزيارت للأهل, والكلام مسموح, ولقاءات للمساجين بين بعضهم, وطعام مقبول, والأهم أنه لايوجد فيه ضرب وتعذيب, فصار حلمنا أن ننتقل إلى هكذا سجن ترفيهي, على الأقل لايوجد فيه عنصر الرعب.

طالت المحنة واشتدت وطأة السجن علينا, لدرجة أنني صرت أفكر في التخطيط لعملية هجوم جماعي على الشرطة لعل بعضنا ينجو, فإما حياة وإما موت, ولو كلف قتل الكثيرين, فنحن ميتون على جميع الأحوال, ولعل هذه المعاناة تنتهي بالموت أو بغيره, ولكن لم يوافقني على الفكرة أحد.

الأحاسيس المشتعلة وطول المعاناة والعلوم الشرعية والتمكن من اللغة العربية, فجّر لديّ طاقة الشعر فصرت أنقل مشاعري وأحاسيسي إلى أبيات الشعر, وكانت هذه إحدى قصائديعن تلك الفترة السوداوية:

تمورُ بخاطري الفِكَـــــرُ   وصدري كادَ ينفجـــرُ

فلا الأقلامُ تـُسعِـفنــــــي ولا الأشـــــعار تنحدرُ

أراها محنةً ثـَقـُـلـَــتْ   وألقتْ كـــلَّ ما تـَـزِر

وما ألوانـُها ممـــــــــا   رآه الجـن والبشـــــر

رُمينا قعرَ مُـظلمـــــــةٍ   فلا حسٌّ ولا خبـــــر

كأنا في مقابرنـــــــــا   بها نـُطوى ونـنـدثـــر

فكم ذا الوجدُ أرَّقـنــــي وكم أضنانيَ الســـهر

أناجي الله في حَـــــزَنٍ ويســمع همستي القمر

فترثي لي نـُجيمــــاتٌ ويبكي الطـير والحجر

وكم هاجت بنا فتـــنٌ وظِلُّ الموت ينـتـشـــر

يُدمدِمُ في معاقلنــــــا بإرهابٍ ويزدجـــــــر

ويَخطـَفُ ثـُلـَّةً منـــا   وبـاقي القوم يـنـتـظـر

ويروي فتكَهُ أثـــــــرٌ على الجدران محتفِـر

جراحُ الجسم قد تشفى وجرحُ النفس يســتعر

يفجِّرُ غيظ َثـــــاراتٍ أنا من كبتها ضَجِـرُ

ولن تـُشفى جراحاتـــي   ولن أنفكَّ أصطبـــر

إلى يوم به سيفـــــــي   بضرب الهام ينصهر

وأفعى البعـــث غادرةً   يُقـَطـَّعُ رأسُها القـذر

كذا فرعونُ سوريــــةٍ وبئـس الفاجرُ الأشِـر

يجُدّ ُ السـيرَ مرتحلاً وقد لاحت له ســــقر

ونعلنها مدويـــــــــــةً طغاة ُالأرض قد قبروا

"وأصبح فؤاد أم موسى خاويا"

كلما كنت أمر على هذه الآية الكريمة كنت أتذكر والدتي, التي كانت مفرطة الحنان, وأتذكر حزنـَها حين كنت أسافر من أجل دراستي في الجامعة, وكيف كانت تبدو واجمة وتقول لي "اجلس يا ابني أمامي حتى أراك قبل السفر", أما لحظة الرحيل والفراق فقد كنت أكرهُها ويصيبني الغم والكمد عندما أرى الدموع على وجنتيها.. هذا كان حالها في سفري لشهور, فكيف يكون حالها في سجني لسنين!

كنت أتوقف عند الآية, وأتساءل على أية حال باتت هذه الأم المسكينة, فإذا كان هذا حال أم موسى التي فقدت ولدا واحدا, وقد أخذت عهدا من رب العالمين أنه سيرده إليها (إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين), فما بالكم بالتي فقدت ولدين اثنين في ضربة واحدة, ومصيرهما في علم الغيب!

كنت أدعو لها بالصبر وأسأل الله أن ينزل السكينة على قلبها.

و كانت الآية الأخرى تبعث في نفسي الأمل وتلهمني مزيدا من الصبر: "فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولاتخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك".

وهذه أبيات نظمتها لأمي, وأهديها لكل أم ضحت وقدمت وعانت من حكم آل الوحش:

أماهُ نبعَ العطـــــاءِ أماهُ رمزَ الســـخاءِ

أنتِ حديثٌ لقلـــبي في صبحه والمســاء

أنت نشيدي ولحني ودمعتي في دعـــائي

أمُ الفهودِ وأنـــــتِ مصانعُ العظمـــــاء

دربُ الجنانِ وأنتِ مدارسُ الشهـــــداء

رضاك فرضٌ وأنت توصيـــــــة الأنبياء

ربيتِـني في مـهادي يحدوكِ نور الرجـــاء

لكي ترَيني أميـــراً كنجمةٍ في السمـــــاء

لما رحلتُ لعلمـــي لم تنعمي بالـهنـــــاء

خبأتِ دمعكِ عنـــي كي لا يُشابَ صـفائي

وكان يسعى جـذولاً قلبك عند اللقـــــــاء

ولمســـة من حنانٍ كانت لجرحي دوائـي

لكنْ أصابعُ ســـوءٍ كادت لنا في الخـفـاء

لكي تصيرَ طريقــي مـجـبـولةً بالدمـــــاء

وكي تصيري نشيداً يُشـــدى بدرس الفداء

أماه صـــبراً جميلاً للصبر حسن الجـزاء

والليل بعده صبـــحٌ والفوز بعد الـعـنـــاء

فاصطبري ملتقانـــا أماه دارُ البقـــــــاء

الفيل:

عندما حضرت دفعة جديدة من الشرطة, ابتكروا طريقة جديدة في تعذيبنا, إذ كان أحدهم بدينا جدا كالفيل, فأحب أن يختبر رشاقته على صدورنا وبطوننا, فكانوا يأمرون أحدنا أن يستلقي على ظهره, ثم يهرع هذا الفيل ويقفز على صدره.

أحد الإخوة ممن تعرضوا لهذا الأسلوب رأيتُهُ في تلك الليلة وهو يعتصر ويبكي في صمت من شدة ألمه, لاشكّ أنه كان مصابا بعدد من الكسور في أضلاعه.. آخرون ماتوا.

مرةً كنا في التفقد كالعادة, وإذ بشرطي يضربني على كتفي ويجرني خارج الرتل, ويأمرني بالانبطاح, فانبطحتُ وأنا حذر وأنا أتوقع أن يقفز هو أو الفيل فوقي, وما أن ركلني حتى نهضتُ واقفا, وتكرر الأمر عدة مرات, فأمتثلُ للأمر وأنبطحُ ثم سرعان ما أهبُّ واقفا.. كان ذلك بمثابة تمرّدٍ ورفضٍ للأوامر توجب القتل بأية طريقة.

كنت أدرك خطورة موقفي ولكني فضّـلت أن أموت واقفا.

غضب الرقيب وبدأ يدفعني لكي أعود فأنبطح ويقضي عليَّ, وأقبل شرطي آخر يساعده لرميي على الأرض, وأدركتُ أن ساعتي قد حانت لامحالة وأني سأموت ضربا وركلا, وتوجهتُ إلى الله أن يتلطَّف بي ويكونَ موتي سهلا وأن يعينني على التعذيب وسكرات الموت, ويختمَها على الإيمان.. ولكن.. وقد تكرر الأمر معي عدة مرات, وهذا من لطف الله.. نعم.. تدخلَّتْ يد العناية الربانية.. فجأة أفلتوني, كأنما أمر ما قد شغلهم, فانصرفوا بسرعة والرقيب يتوعّـدني.

في اليوم التالي خشي عليّ رئيس المهجع من انتقام الرقيب فأبقاني أثناء التفقد مع المرضى داخل المهجع, وعندما مر الرقيب وسأل عني أجابه إنه مريض.. ويبدو أنه كان في عجلة من أمره أو أن الله حجبه عني فمرّ اليوم الثاني بسلام.

كنت أسأل الله اللطف والسلامة, وكنت أحسُّ أني أعيش بين مخالب موت شرس متربص يوشك أن ينقض عليّ.

قرأتُ حنانَك ربـــــــــي جليا وحفظَك في النائبات العتيّـــة

فكم داهمتني خطوبٌ جِســـامٌ وكم طوقتني ذئابُ المنيـَّــــة

وسُدّتْ بوجهي دروبُ الخلاصِ وأحكمَ قيدي وضاقـــت عليَّ

ولم يـبـقَ غـيـــرُكَ ربي رجاءا فنـــــاديتَ : عبدي إلــيَّ إلــيَّ

مع الكتائب

كان من جملة السجناء في تدمر فئة صغيرة من حزب الكتائب اللبناني, حوالي عشرون شخصا, خصَّصوا لهم مهجعا ووضعوهم فيه, ولم يكن بينهم طبيب أو أحد عنده إلمام بالشؤون الطبية, فقررت الإدارة أن تحضر لهم طبيبا من المهاجع المجاورة.

في اليوم الثالث يشاء القدر أن يمرّ رقيب آخر على مهجعي ويسأل رئيس المهجع: "كم مسؤول صحي عندك؟", (وكنتُ في تلك الفترة تعبت من مهمتي كمسؤول صحي وأوكلتها إلى طبيب غيري) فأجابه: "اثنان".. فقال: "أخرج الثاني".. وكان الثاني أنا.. حملتُ كيس أغراضي وخرجتُ, فمشى بي وفتح باب مهجع آخر وأدخلني إليه, وكان مهجع الكتئب.. وهكذا ضاعت قصتي مع الرقيب الأول وكان ذلك من عجائب ألطاف الله.

أقبل أفراد المهجع وتجمعوا حولي ليتعرّفوا على الزائر الجديد, ورحّبوا بي.

كان المهجع صغيرا نسبيا, وشبهَ خالٍ, فهذا العدد القليل لم أشاهده منذ فترة طويلة, عشرون شخصا في غرفة كبيرة.

اعتقل هؤلاء الأشخاص أثناء اجتياح حافظ الأسد للبنان والذي استمر حوالي عشرين عاما, تخللها فترات مقاومة من بعض الفئات اللبنانية, كان من جملتها حزب الكتائب.

كانوا من حزب الكتائب اللبناني, وكان بينهم أربعة مسلمون والباقي نصارى, وبعضهم لبنانيّ الجنسية ومعظمهم سوريو الأصل عاشوا في لبنان.

كانت معاملة هذا المهجع متميزة عن باقي المهاجع, فكانت تصلهم كميات وافرة جدا من الطعام, تفوق حاجتَهم بأضعاف, فكانوا يرمون الفائض من الأرز والبرغل والخبز والمرق في مصارف التواليت.. والحقيقة أني عرفت معنى الشبع بعد سنوات من الجوع, بينما كان السجناء في المهاجع المجاورة يعانون من الجوع الدائم, ويحرصون على حبة الأرز وكسارة الخبز ويلعقون اللبن من الأرض عندما يسيل من الطبق أثناء إدخاله إلى المهجع.

كانت مقابلات الشرطة لهم في التفقد وغيره سلميّة وهادئة من غير ضرب أو أذى أو حتى شتيمة, أما في التنفس فكنا نخرج إلى الساحة ونمشي بهدوء في الهواء الطلق والشمس لمدّة نصف ساعة ونعود أدراجنا.

أحيانا كان يتزامن تنفسنا مع مهجع مجاور في نفس الساحة, فكنت ألمَحُ إخواني جاثمين على الأرض, مطرقين, مستديرين إلى الحائط, والشرطة يدوسونهم ويركلونهم ويضربونهم, وصرخات الألم تتعالى في أرجاء الساحات, فيحز وضعهُم في قلبي, وأتفكر أنه هكذا كان حالي قبل أيام.

عندما كنت أرى هذه المشاهد كنت أعتصر ألما وحزنا, وأحمَدُ الله أن نجّاني من العذاب, وأسألُه أن يرفع الضيم عن إخواني.

لم تمض فترة طويلة حتى بدأ بعضهم في الكيد لي وتأليب أفراد المهجع ضدي بحجة التحيّز الطائفي, أي أني أهتم بالمسلمين منهم, وأخصهم بزيادة في الدواء, وبحجة الدعوة إلى الإسلام وتحفيظ القرآن, حتى أن أحدَهم وأجهلَهم "الياس" اشتكى إلى الشرطة, وادَّعى أنه مظلوم, وأني لا ألبي حاجاتَه من الدواء وتسبب لي بعقوبة الشرطة, عليه من الله ما يستحق.. وكثيرا ما كان يعتريني الاشمئزاز من وجودي مع هذه المجموعة الكارهة لي والحاقدة, ويمنون عليَّ أن أحضروني إليهم وخلَّصوني من بطش الشرطة, وكأنما هم الذين اختاروني أو أني نزلتُ بيتهم, وأتمنى لو أني بقيت مع إخواني في مهاجعهم يصيبني ما يصيبهم, ولكني كنت سرعان ما أغير رأيي عندما أسمع صدى الصرخات والتعذيب الهمجي الوحشي تهدر في الساحات.

حتى علاقاتُهم مع بعضهم كانت سيئة, وفي نزاع دائم على أتفه الأمور, وكانوا بذيئين في شجارهم, ويتراشقون بالألفاظ النابية والسوقية, وترتفع أصواتهم بشكل مخجل.. حتى المسلمون منهم, لم يكونوا أحسن حالا ولم أسلم من شرهم, وتعرضت لعدة مواقف صعبة.

كنت غالبا أضطر إلى تفادي المشكلة, وقد أسرَّ إليّ أحدُهم وحذرني أنهم اتفقوا على تقديم شكوى ضدي أني أسب الرئيس وسوف يشهدون مجتمعين على ذلك زورا وبهتانا, وطبعا شهادة كهذه في مكان كهذا كافية لقتلي.. وقال لي جملة حينذاك "شاهدان اثنان يوصلان الرجل إلى حبل المشنقة" ولكن اللطف في القدر استمر في مرافقته لي, فبعد أيام فتح الباب, ودخل علينا سجينان من نفس قضيتي بتهمة دينية اسلامية, وقد أُحضروا إلى هذا المهجع من باب التوصية بهما, على اعتبار أن هذا مهجع المدللين, ففويَ موقفي وتراجعوا عن مخططهم الخبيث.

روى لي أحدهم "جورج" أنه قضى فترة في فرع التحقيق في زنزانة مع ثلاثة من المسلمين, وقد أظهروا له المودة والتعاطف, فكانوا يؤثرونه في الطعام, فيتباطؤون في الأكل حتى يفسحوا له قدرا أكبر من الطعام القليل المحدود في الصحن المشترك.

وكان لديهم علبة حلاوة فارغة, خصصوها للتبول باعتبار أنه لايوجد مرحاض في الزنزانة, فكانوا يجورون على أنفسهم ويتماسكون حتى يخرجوا إلى الحمام, ويتركون العلبة متاحة لهذا الرجل.

ذهل الرجل بهذا الإيثار في موضع لايسمح بهكذا تعامل, واعتنق الإسلام وبدأ يصلي ويحفظ القرآن, وتكنى ب "أبو عكاشة".

فرح السجناء به كثيرا وأكرموه وأصبح محطّ حديثهم واهتمامهم, فكان كلما حفظ سورة باركوا له وهنأوه, وروى لي أنه حين حفظ سورة القيامة فرحوا بذلك وتناقلوا الخبر وقدموا له ما تيسر من الفاكهة كهدية.

عندما أحضر إلى تدمر واجتمع مع رفاق حزبه انزعجوا من إسلامه وضيقوا عليه الخناق, وأعلنوا عليه الحرب حتى أجبروه على التراجع, ولكن عندما حضرتُ أسرَّ لي بالأمر, وصار يحفظ مني القرآن سرا.

جوني:

جوني ضابط في الجيش السوري, تعرض لمحاولة اغتيال من قبل الإخوان المسلمين في حلب ونجا منها بأعجوبة, إذ التبس الأمر على القاتلين, وقتل شخص آخر كان في بيته عوضا عنه (على روايته).

كان جوني مهذّبا خلوقا ودودا, ومن طرائف الأقدار أن توطدت بيني وبينه صداقة قوية, حتى أنه كان شريكي في الطعام لمدة سنوات لم أرَ منه إلا حُسْنَ الخُلُـقِ والمعشر, وروى لي تفاصيل حياته وعائلته.. وكان متدينا يصلي, فكنت عندما أنتهي من الطعام أقول أمامه مازحا: "الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين", فيقول: "الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا ولم يجعلنا مسلمين" فنضحك سوية..

كان خال جوني في لبنان, وكلَّـفه حزب الكتائب بنقل رسالة إلى جوني في سوريا يعرضون عليه الانضمام إلى حزب الكتائب والتعاون معهم.

الرسالة لم تصل إلى جوني.. أحدهم وشى على الخال.. (وهذا يدل على أن المخابرات الأسدية كانت مخترقة حزب الكتائب) وألقيَ القبض على الخال على الحدود وكُشفت معه الرسالة, وعلى إثرها اعتقل جوني الذي لم تصله الرسالة ولم يعلم بأمرها أصلا!

النتيجة كانت أن الخال أعدم في تدمر.. وجوني مكث في السجن ما يزيد عن عشر سنوات بتهمة أنه قابل للانتساب إلى حزب الكتائب!.

كان "جرجس" يلعب دور الكاهن الوصي على المسيحيين في المهجع, ويعطي التوجيهات والتوصيات الدينية, ويعتبر نفسه أنه يحمي حمى الصليب وأتباعه, وقد أقر بأنه كان يطمح أن يكون راهبا, وبالمناسبة فإني لست ضد الرهبان ولا الكهّان, ولكن ضدّ التعصب الأعمى والحقد البغيض.

"الياس" الذي اشتكى عليَّ إلى الشرطة, كان أحد التافهين الفارغين الذين استخدمهم جرجس وغيره كرأس الحربة ضدي, وقد نجحوا في مأربهم عدة مرات وألحقوا بي الأذى.

دار شجار مرة بيني وبين "الياس" واحتدَّ الحوار, فانبرى جرجس للدفاع عن الياس وتهجم عليَّ بالكلام.. وهنا كانت المفاجأة التي لم أكن أتوقعُها إذ تدخل جوني وقال له بحدة "لماذا تتدخل في المسألة يا جرجس؟".

فصاح جرجس منفعلا وقال باللهجة اللبنانية: "الياس خَيِّي" -أي أخي في الدين-.

وقف جوني ورد على جرجس قائلا: "وأسامة خيّي".

انتهت المشكلة عند هذا الحد, وكان ذلك من من أشجع وأنزه المراقف التي شهدتُـها, إذ وقف هذا الرجل وواجه أبناء دينه من أجلي, ولم ينجر إلى التعصب الديني لينحاز إلى أبناء دينه.

هذه شهادة حق تقال في جوني وغيره, وأنا أفتخر بوجود أهل كتاب في بلدنا من هذا النموذج, جوني الذي أنصفني ونصرني وردَّ إليَّ اعتباري في ذلك الموقف حين كنت أقف وحيدا بين نارين: شرطي مجرم في الخارج, وسجين حاقد في الداخل, ولاتزال تربطني مع جوني صداقة طيبة حتى يومنا هذا.

جورج سمعان سجين آخر كان معنا, كان مضطربا نفسيا, حاول الانتحار في السجن عدة مرات, وقد علمت أنه انتحر بعد خروجه من السجن.

محمد كان أيضا معنا ومن حزب الكتائب, لم يستطع تحمل شدة السجن وفقد عقله, لكنه كان مسالما.

كان محمد يلاحظني أصلي بعيوني إيماءا, فاقترب مني مرة وقال لي: "لاتصلِ" وانصرف, ابتسمت ولم أعلق على كلامه.

بعد أيام رآني مرة أخرى أصلي, فقال لي : "ألم أقل لك لا تصلِ؟".

قلت: "نعم, ولكن كيف لا أصلي, والصلاة فرض في الإسلام؟"..

قال: "أنا النبيُّ مـُحَمـَّد, وأقول لك لاتصلي"!

وكان أيضا يقول لي: "أكثر من شرب الشاي حتى ينبت الشعر في رأسك"!

الانتقام الرباني 1994

كنا في غيابت الجب, معزولين عن العالم الخرجي تماما, ونعلم بالأحداث المهمة بعد دهر من الزمان وذلك عندما يصلنا سجين جديد, فنستقي منه الأخبار, ونجلس حوله بعد أن يستردَّ أنفاسه بعد حفلة الاستقبال, ونسمع منه مايدور في هذا العالم وكأننا أصحاب الكهف.

فمثلا لم نعلم بانهيار الاتحاد السوفييتي إلا بعد أكثر من سنة على الحدث, عندما قرأنا في جريدة عبارة "الاتحاد السوفييتي سابقا", فدهشنا من كلمة سابقا, وفهمنا ان الاتحاد السوفييتي صار من الماضي, وكذلك هدم جدار برلين وتوحد الألمانيتين لم نعلم به إلا بعد سنوات.

كان يرجع السجين أحيانا من الزيارة, فيخبروه أن أمه أو أباه قد توفي منذ سبع أو ثماني أو عشر سنوات, فيدخل المهجع ويجهش في البكاء, ونعزيه في مصابه!

في أحد أيام الشتاء البارد انطلقت المآذن بقراءة القرآن بشكل كثيف لم نعهده من قبل, واستمرت قراءة القرآن أياما, لم نعرف لماذا؟

توقعنا أن يكون الزعيم قد مات, فمن الواضح أن أمرا جللا قد وقع, فقراءة القرآن المستمرة بهذا الشكل غير مألوفة ولاتحصل إلا عند وفاة الشخصيات المهمة, وخشينا أن يكون الرئيس مات مقتولا, لأنه سوف يحلّ الانتقام بنا, ولكن هذا الأمر لم يحصل!

على العكس من تخوفنا فإن أمور السجن مالت إلى الهدوء, وخفّت شراسة الشرطة, وبقي اللغز قائما أكثر من شهر حين استُدعيَ أحد المساجين في أمر ما وعاد يحمل الخبر.. إنه مصرع الباسل, وهنا انحلّ اللغز, وكان الجواب مفاجأة كبيرة لم تكن في حسبان أحد.

كان ذلك في 21 كانون الثاني, في نفس يوم اعتقالنا من السنة بالضبط ولكن قبل ثلاثة عشر عاما, أنا وأخي, فهل كانت هذه رسالة من رب الأرباب, ومن المنتقم الجبار, أن سيكتوي الظالم بنفس النار التي كوى بها شعبه؟ وهل كانت رسالة خاصة إلى أمي أو أبي, أنّ الذي انتزع ولديكما من بين أيديكما, هأنذا أنتزع من بين يديه فلذة كبده في نفس اليوم بالضبط وبعد ثلاثة عشر عاما؟

صارت تدور الخواطر برأسي عن هذا الدرس العظيم الذي لقَّنَهُ رب العالمين للبشر, فحين عجز العباد, وغُلبوا على أمرهم, وحَسِب فرعونُ أن لن يقدِرَ عليه أحد, وحسب أن لم يره أحد, وقال ياأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري, وظن الجهول أنه خرج من المعركة ظافرا ناجيا.. أتاه الله من حيث لايحتسب, وأصابه في مقتله, في عقر داره وبأغلى ما يملك.. وانتزع

من بين يديه وليَّ عهده.. فيا سبحان المنتقم الجبار, الذي يمهل ولا يهمل, وصرت كلما وصلت إلى قوله تعالى "أليس الله بعزيز ذي انتقام" أقف عندها مليا وأقول "بلى".. ونظَمتُ حينها هذه الأبيات:

يا ســاقيَ الناس من كأس بها النكدُ   م نها اشربنَّ وذقْ ما الناس قد وجدوا
أرسلتَ حبلاً على الأعناق تخنقُها   وإذ ببيـتـِك حبلُ الموت ينعقـــــدُ
أيقظتَ بركانَ حقدٍ زافراً محنـــاً   حتى أتاك انتقام الله يتَّـقِــــــــدُ
لما سمعتَ بكا ثكلاك باسلـَهـــــا   ترى عرفتَ أخيراً ما هو الولـــدُ؟
كم قد فجعتَ أباً بابنٍ ووالـــــدةً   وكنتَ في طربٍ لما بكى البلــــد
على الألوف من الأزهار إخوتـِنا   والأرض شاهدةٌ والحبلُ والــزرد
ما كان موتُ الفتى يأتي مصادفةً   والدرس متضِـحٌ فافـهمْهُ يا رمِــد
إن يَعْجِـزِ الناسُ فالأقدارُ نافــذة   إن حـان موعدُها ما ردَّها أحــــد
لله في خلقِهِ جندٌ مجنـَّــــــــدَةٌ   تـنبـَثّ ُ خافيةً ما حدَّها عــــــدد
في العين مهملةٌ في الوزن راجحةٌ   في الحكم ماضيةٌ,لله تـحـ تشـــد
ســيفُ المنيةِ إذ يهوي القضاء به   يـنقضّ ُ صاعقةً,في الحزم منفرد

يا قاتلاً نجلـَه بالظلم لا ظفِــرتْ   يمناك خيراً,ولا اليسرى لها الرشد
أغوتـْكَ سـُحْبٌ من الطغيان آثمةٌ   وعرشُ بغيٍ إلى الإجرام يستـند
وغرَّك الهُرْجُ بالتطبيـل قد برعوا   ونصَّـبوكَ إلهاً.. بئسَ ما عبــد وا
ربّ ُ المجازر, والإرهابُ حكمتـُهُ   والقـتـْلُ منطقـُهُ, والصدق مُفـتـَقـَد
تلك القوافلُ في الصحراء ما نُسِيَتْ   في عنـْق من دمُها؟ يا وغدُ تعتـقـد ؟
يا رُبَّ أمّ ٍ على الأحـزان عاكفـــةٍ   ترمي الدعـاءَ وإذ بالعرش ِ يرتعـد

ظلت تـُهـيـلُ عليك اللعنَ ألسنـــــةٌ حتى قضى ابنـُك فانظر ما جنته يد

يا حاكماً زمناً بالغدر محـتـقـنـــاً وفي طباع الوحوش الغدرُ معتَمَـ د
ورمزَ عارٍ مدى الأزمان تحملـُهُ أبشرْ بهاويةٍ في جـيـدِكَ المســـ د
فأنت حافظُ لم تحفظْ سوى سَقَـطٍ وكنتَ مفترساً للشعبِ يا أســـــ دُ

موت الباسل في مذكرات أبي رحمه الله:

"بينما أنا في صلاة الفجر كسيرُ الخاطر أمام رب العزة, حيث اعتـُدتُ أن أدعوَ للأسرى من أبناء المسلمين بالفرج, وأختم توجهي بالدعاء لأولادي, سألت الله بضراعة فقلت: يارب هل يمكن أن أغادر هذه الدنيا دون أن أرى من ظلمني يذوقُ من بعض الكأس الذي شربتـُهُ؟

(ملاحظة:كان هذا التشبيه بالشرب من كأس الظلم توافقا في الخواطر بيني وبين والدي, وكلٌ كان في أرض وحال, فيا سبحان الله).

لم يتأخر الجواب, فهل كان حقا جوابا لسؤالي؟ ولكن من أنا عند الله؟ قد أكون أحقر من أن أطلب من الله العظيم طلبا, ولكن ألم يقل رسوله الكريم: اتقوا دعوة المظلوم, فإنها ليس بينها وبين الله حجاب, هل كانت أبواب السماء مفتوحة؟

كان الجواب الذي لم يخطئ في يوم الجمعة 21 كانون ثاني 1994 ... نفس يوم اعتقال ولديّ الحبيبين بالضبط ... ألم يكن ردا إلهيا؟

لقد ذاق صانع الأيتام والثكالى بعضَ ما أذاقهم.

في اليوم التالي (السبت) حـُشرت القطعان من كبير وصغير ليحزنوا - تحت إجبار قوى المخابرات- على من كان مـُخطـَّطا له لولاية العهد.. لمدة أربعين يوما حشد الملايين في مسيرات الحزن المفروض, أقفِلت كلُّ الأسواق وتجمّدت الحياة بأوامر كلاب المخابرات. أقيم له ضريح في القرداحة كأضرحة الملوك وأصبح مَحَجًّا للخراف والمهرجين والممثلين.

أُمِرت محلات بيع الخضار بإقفال محلاتهم في اليوم الثاني, ولم تـُفد شكواهم في أن خضارَهم ستفسدُ إذا لم تـُبع.

ومن البليَّة أن يعطي أحدُ المشايخ القتيلَ صفة الشهيد!

إنه باسل الأسد: 1- الرائد 2- المهندس 3- المظلي 4- الفارس الذهبي.. والذي بلغت أرصدته النقدية في النمسا وسويسرا عشرات المليارات من الدولارات."

الشعر والرسائل

كتبت في هذه السنوات الطويلة قصائدَ عديدة, أولها كانت لأخي الشهيد حسام, والثانية كانت رسالة إلى أمي, ثم إلى أبي وأخواتي وبيتي وذكرياتي.. وكنت أرسل هذه القصائد مع الخيال, أو الرياح او الطيور.. وأظنها كانت تضيع في الطريق!

وكنت كثيرا ما أتغنّـى بذكرياتي مع أهلي وأسترجع الأيام الخوالي والنعيم والرخاء الذي كنا نعيش فيه, وأتذكر أبي كيف كان حريصا على أن نكون مثاليين في كل شيء, وكان يسابق الزمن من أجل تعليمنا, وسبـَّقني في تعليمي سنتين دراسيتين عن أقراني, فإذا بي أهوي خمسة عشر عاما إلى الوراء في غياهب الكهوف!

بعد مضي اثني عشر عاما كتبت قصيدة طويلة إلى أبي, أذكر بعضا من أبياتها:

الترسُ والبتارُ يســـــــتبقـــانِ والقفلُ والمفتاح يعتـلجـــــانِ

عامانِ يا أبتاهُ زادا عشـــــرةً في حمـأةِ الـتنور في البركـــان

في القبرِ في التابوت في ظلماتــهِ في وطأةِ الكابوسِ في الهذيـــان

في غارِ وحشٍ هائجٍ متضـــورٍ في بطن حوتٍ ليـس كالحيتـان

لجريمةٍ أني تبعـــــــتُ محمداً عشرٌ مضت في السجن ثم اثنانِ

أبتاه فاصبر إن أتاك بأنـــــــهُ طعنتْ فؤادي حربةُ الشيطـــان

أبتاه لا تحزن فليست دربُـــــنا مفروشةً بشقائقِ النعمـــــان

لكنما التاريخُ يشهد دائمـــــاً نصـرَ الدعاة على مدى الأزمــان

هو أن يظلَّ الحقّ ُ يرعبُ طاغيـاً رغم القيودِ وبطشـــةِ الســـجان

ويظلَّ وطواطُ الخرائبِ عاثـــراً يخشى الضياءَ وإن يـكنْ لـثـــوان

فسبيلُـنا حقٌ ووعدٌ صـــــادقٌ وســبـيلُهم في الزَيفِ والبُطْـلان

وقلوبُنا تحيا بنور يـقـينِـــــها وقلوبُهم عميٌ وفي الأكفـــــان

ومآلُنا نحو الجنانِ وأهلِهـــــا ومــآلُهم في الـهـون والنيـــــران

أبتاه لا تأسفْ عليَّ ولا تقـــــل ضـاع الفتـى في زحمـةِ الـثيـران
ودعِ التحسرَ والقنوطَ ولاتـهِنْ أبداً, ولا تركَــنْ إلى الأحـــــــزان
أنت الذي علمتـَنــي معنى الهدى وحملـَتـَني في مركب الإيمـــــان
وهمستَ في أذني بنيَّ تبصـَّـــرَ - - - - نَّ ولاتـكنْ في موكبِ العميـــــــان
الببغاواتِ التي ما قولـُهــــــا إلا نعم للمُـلـْهَـــــــــــمِ الرباني
ولدي: ولا تخدعْك كثرتـُهـــم ولا تســتوحِشَـــــــنَّ لقلة الفرسان

فلمَ التعجبُ يا أبي إن نـُمتـَحَـــنْ أو نـصـطـدم بالمُرعِدِ الغضبـان
ولم البكاءُ على الدنا وحـُطـامِهـــا ولم التشكي من أذى القرصــــان
ما المالُ والأهلــونَ إلا فـتـنـــةٌ والله ذو عـدلٍ وذو إحســـــــان
والسجنُ والإيذاءُ سُلـَّمُ مؤمـــنٍ يرقـى به لمراتـــــب الرضوان
والخسرُ خسرُ النفس في سَقـَطاتِها والنصرُ نصـر الروح لا الأبــدان
أبـتـاه إن بـعـنـا الحيـــــاة بجنة ربح الـمـبـيـعُ بحجة القـــــرآن

الزيارة الثانية عام 1994

في تلك السنة أتيحت لي زيارة أخرى من أهلي, كان قد مضى على زيارتي السابقة عشرُ سنوات كاملة, لم يصلني عنهم أي خبر, وكنت أتساءل هل ياتراهم على قيد الحياة, أم فارقوا هذه الدنيا والحسرة تأكل قلوبهم, كان اللقاء مشحونا, وقد بدت الشيخوخة والإرهاق على والديّ, والحزن قد فعل في والدتي ما فعل, حتى أنها عند دخولي غرفة الزيارة هبت واقفة, ولكن قدماها خذلتاها من صدمة اللقاء, وارتدت إلى الخلف وسقطت على المقعد الذي كانت جالسة عليه ولم تقو على الوقوف, سارعت إلى تقبيل يديها, كان الألم واضحا في قسمات وجهها رغم أنها حاولت أن تتصنع الابتسامة.. الابتسامة المذبوحة منذ أربعة عشر عاما.

أخي الصغير "مهند" الذي تركتُهُ وعمرُه سبعة أعوام حضر في الزيارة, وكنت شغوفا به وأوليتُهُ من اهتمامي الكثير, كثيرا ما كنتُ أحلمُ به في سجني وأناجيه وأنظم له القصيد.

كان قد مضى على فراقنا أربعة عشر عاما, تركتُـهُ ابن سبع سنوات, وقد بلغ الآن أحد وعشرين عاما, ولم أرَهُ منذ ذلك الحين, وصار كما كنت أتخيله في قصيدتي شابا (في قَـدْر الرجال).. عرفتُه فورا, وكم كنت مشتاقا لرؤيته, لأنه لم يكن حاضرا في زيارتي الأولى قبل عشر سنوات, وقد حزّ في نفسي أن لا أراه.. وكان يحاول أن يضفي على اللقاء طابع المرح والدعابة, فيقول (يكفي في العائلة طبيبان, البلد بحاجة إلى سبَّاك وبلاَّط ودهَّـان).

هذه إحدى القصائد التي أرسلتُها إلى أخي:

شقيقَ الروحِ يا حُلُم الليالي وأحلى ذكرياتٍ في خيـــالي

ذكرتُكَ يا أخِيْ فاهتزَّ قلبـي وذوَّب أسـطُري لهبُ المقـالِ

فرُحتُ أخطّ ُمن قلمٍ كسير إليكَ رسـالتي عَبر الجبـــالِ

ولا أدري تراها هل ستـلقى رسولاً، أم تضيـع على الرمال

تركتك يا أُخَيَّ وأنت طفــلٌ وصرتَ اليوم في قَدْر الرجال

وكنتُ بوقتها نَضِراً فتيــاً وهأنذا على شفةِ الـــــزوال

وبيتٍ كان للأحبـــاب ورداً يغصّ ُاليوم من فقد الغوالــي

فأصبحنا:أخٌ منا شهيـــدٌ وآخرُ تحت رامية النبـــــال

ألا وامسحْ برفقٍ دمعَ أمي إذا نظرت لكتبْي أو خيـــــالي

وإن تـرَها مع الأحزان ليلاً تقومُ تضمُّ طاقيتي و شـــــالي

وفي سَجَدَاتك ادعُ الله كسر لأغـلا لي، وحرقاً لـلـحـبـــال

حاول أهلي أن يسألوني عن حسام, والشرطة طبعا تراقب كل نفس وهمسة, فتجاهلت السؤال, وأيقنت أنهم سوف يستمرون في محاولاتهم للقاء حسام, وسيبذلون الجهد والمال في سبيل وعود زائفة.. فحاولتُ أن أنقل الفكرة إلى خالتي بطريقة الألغاز, وأن أستعمل كلمة "أبو النور" التي كان حسام معروفا بها ويكنى بها بين الأهل, ولم أختر أمي أو أبي لعلمي أن أعصابهما لن تتحملا الخبر, وثقتي بهدوء خالتي واتزانها وذكائها, فقلت لها "سلّمي على أولاد خالي أبو النور الله يرحمه".. فكانت هذه إشارة مني (الله يرحمه) بأن أبا النور قد توفي, وقد فهِمَتْها الخالة.

أنقل وقائع الزيارة برواية أبي رحمه الله:

زيارة الحبيب أسامة في تدمر عام 1994

طلبات متعددة أرسلت إلى رئاسة المخابرات من أجل الزيارة في مضافة تدمر, إلى أن أثمرت بالموافقة أخيرا في 24 تشرين أول.

بعد سلسلة من الإجراءات الروتينية حصلنا على الإذن الخطي وقد شمل الإذن: أم أسامة وخالته وأخاه وأنا. كان الإذن يشمل أسامة فقط دون أخيه حسام, الأمر الذي أصابني بالوجوم طيلة الطريق الذي يمتد 250 كم.

بعد عدة إجراءات في سجن تدمر أُخِذنا إلى نفس الغرفة التي كنا رأيناه فيها منذ عشر سنوات. استقبلنا في الغرفة ضابط صف برتبة مساعد, وبعد حوالي عشر دقائق أمر ضابط الصف (الذي كان يبدو نسخة مصغرة عن حافظ أسد) باستدعاء أسامة, وكان لقاء الدموع والآهات..

لفت انتباهي مخاطبة أسامة لضابط الصف ب (احتراماتي سيدي)!.. فرأيت العلم والأخلاق والمثل العليا أين يكون مكانها!.. تحت أحذية الجهلة السفلة جلادي الديكتاتور في السجون.

تعليق من خالي عاصم على الزيارة الثانية:

فيما يخص الزيارة الثانية لك في تدمر...طلبت مني والدتك أن أتكلم مع أحد المسؤولين من أجل زيارة لك.. سألت فقيل لي أن الشرطة العسكرية هي المسؤولة عن سجن تدمر, وكانت تربطني مع العميد رسمي العيد وشقيقه ركني المسيحيين من حوران علاقة صداقة, فأخذت أمك بسيارتي وذهبت معها الى القابون حيث مدرسة الشرطة العسكرية ومركز آمر سلاح الشرطة العسكرية.. استقبلَنا العميد بكل ود وقبلني وشرحت له الموضوع.. اتصل هاتفيا وسأل عن اسمك فيما إذا كنتَ من سجناء تدمر.. جاءه الجواب بالايجاب فأمر بإعطائنا إذنا بالزيارة.

كان العميد عبد الرحمن قد أبلغني عن إعدام المرحوم حسام واصابة عينه, وكان قد علم بذلك عن طريق صديقه عدنان بدر حسن رئيس الفرع السياسي, ولكني اضطررت إلى كتمان الأمر أمام الأهل خشيةً على مشاعرهم.

ابتهال

إلهي بسطتُ أكف الدعاءِ *وقد بسط الظلمُ جُنحَ البلاءِ*

ولفَّ الأنام سكونٌ وليلٌ *وضجَّت شجوني وعزَّ دوائي*

إلى مبتغايَ طريقٌ طويلُ *أريد الشراءَ وذخري قليلُ*

فكيف المفازُ بسلعةِ ربي *ودون المنال مِصابٌ جليلُ*

مشيت إليها أنوءُ بحملي *ودنيا دعتني، ونفسي تميلُ*

أجبتُ نداها فأغوَتْ فؤادي *نسيتُ مرادي وشقَّ الرحيلُ*

قعدتُ بظلّ ٍلدنيا تغني *فتاهَ المسيرُ وضاع الدليلُ*

ولما أفقتُ بوادي الأفاعي صرختُ هلوعاً أغثْ يا وكيلُ

أريدُ الخروجَ لشطِّ السلامةْ وأمَّـــارةُ السوءِ تبغي المرامَ

وترسلُ موجَ الهوى والأمانيْ لـتـقـذفَـنــي في بحور الندامةْ

أسيرُ بغابةِ رعبٍ مُريبـــــــةْ تَـهيجُ بها الضارياتُ الرهيبه

وأسمعُ رجعَ الضحايا أنينــاً فينبتُ ثأرٌ بماءِ االمصيـبـــة

وأحملُ درعي اتقاءَ الطعــانِ فتسخرُ مني سهامُ الزمــــان

متى ردَّ عنك احتراسٌ قضاء فلا نامتِ العينُ عينُ الجبــان

تَـهيجُ المنايا وترمي الرماحـا وترسلُ سيلَ الردى والرياحـا

تزلزلُ أرضي تهدِّمُ سقفـــي وهذا عدوي دمائي استباحـــا

فأسقطُ بين مخالب يـــــأسٍ وأشعرُ حتفي يجيءُ اجتياحـا

وأذكرُ أني بحفظ عظيــــــم يغيثُ العبادَ.. يداوي الجراحـا

وأوقنُ أني إذا شاءَ ربـــــي أسيرٌ مساءاً.. طليقٌ صباحــا

فتسري الحياةُ وتشرق نفسي وأرقبُ فتحاً على الأفْقِ لاحا

قطار الحياة يمر سريعــــــا ويَخطَـفُ شيخاً وطفلاً رضيعا

وطاحونةُ الدهر تحت رحاها يساوي الأميرُ الفقيرَ الوضيعا

فأين ظلومٌ يتيـــهُ اختيــالاً وأين عذابُ السجين مُريعـــا

يزولُ الجميع ونمسي ترابــاً ونُبعثُ منها سواءاً جميعـــا

وبعد النشورِ حسابٌ ووزنٌ يذوقُ الجناةُ العذابَ الشنيعـا

إلهي سألتُكَ بالمَكرُمـــــاتِ جوارَ الرسولِ ومثوىً رفيعـا

ولا ربِّ قابلتـني بفعـــــالي وهذا دعائي لديكَ شـفـيعــــا

السنة الأخيرة في السجن

في السنة الأخيرة حصل تطور جديد معنا, فأصبجوا يوزعون علينا الجرائد الرسمية لأول مرة (بعد 14 سنة من الانقطاع والعزلة الكاملة عن العالم الخارجي), ومع أنها كانت ناطقة باسم الحكومة, كنا نقرأجميع ما فيها من أخبار (عديم ووقع بسلة تين), حتى الأخبار التافهة (ومعظمها تافهة), وكنا نستنتج منها أخبارا قديمة, وقد يكون مضى على الجريدة أسبوع أو اثنان, ومع ذلك كانت لنا نافذة على العالم.

كان من جملة ما قرأت حينها تفاصيل موت باسل وما رافقه من مواقف وتعليقات (طبعا وذلك بعد سنوات من موته) وقرأت كلمة الشيخ سعيد البوطي آنذاك, وتفاجأت بها كثيرا, وكنتُ لا أصدق ما أقرأ, وشعرت بالتقزز والغثيان ثم لم أتمالك نفسي أن بصقتُ على الجريدة.. فقد كنت في يوم من الأيام ممن يستمعون وينهلون من علمه, وما كنت أتصور أن يمشي علماؤنا في مواكب الظالمين.. نحن نعذب ونقتل في السجون, وعالِمُنا الفاضل يبكي على الظالم ويشهد له بالتقى ويعطيه بطاقته إلى الجنة!

أذكر باختصار قصة رواها البوطي سمعتُها منه في المسجد, عن العز بن عبد السلام, كيف كان يقول كلمة الحق, ولا يهاب الظالمين, ووقف ضد المماليك في ذلك الوقت, وأفتى ببطلان شرعيتهم في الحكم.. وفي إحدى الليالي حضر إليه الزبانية ليقتلوه, وحاصروا بيته, وخاف عليه ابنه, فأقبل إلى أبيه يقول له : يا أبت انجُ بنفسك, إنهم الجنود يريدون قتلك.

فما كان من العز إلا أن قال: "يا بنيَّ إن أباك أقلُّ من أن يقتلَ في سبيل الله", رواها البوطي وقد تهدج صوته ودمعت عيناه.. يا خسارة العلم.

نعم يا خسارة علمه فقد وظَّفه في خدمة الطاغوت, ولسخرية الأقدار أن قتله الطاغوت الذي أحرق نفسه لأجله.. نسأل الله العفو والعافية وحسن الختام.

لم تتغير المعاملة كثيرا, من حيث الطبيعة الإرهابية للسجن والعقوبات والضرب والتعذيب, ولكن حوادث الموت تحت التعذيب صارت أقل مما سبق, وكأنما كانت الأوامر بأن يكون الضرب دون حدود القتل, واستمر الضرب حتى آخر يوم في سجننا وخرج بعضنا ولاتزال على وجهه آثار حديثة من الصفعات والكدمات.

تعاقب على إدارة السجن عدة أشخاص, كان آخرهم "غازي الجهني" وكان الأسوأ بغير منازع, فبعد أن مالت المعاملة للهدوء بعد حوالي عشر سنوات من السجن, عادت واشتعلت

من جديد بعد استلامه, وصار الجَلْدُ يبلغ أرقاما قياسية قد تصل إلى ألفي جلدة على الظهر والأقدام.

هذا المجرم كان حريصا على تفقد الطعام قبل وبعد دخوله المهاجع, ويراقب التوزيع بنفسه ليطمئن أن حصة الفرد الواحد لاتزيد عن خمسة أو ستة حبات من الحمص أو ربع بيضة.

كان حريصا على التعذيب أن يبلغ أقصى مداه حتى لايستطيع أحدنا المشي ولا الوقوف لفترة طويلة, ولا يشتفي صدره حتى يرى المعذَّب شبه مشلول..

هذا الظالم المتجبر أصيب في حادث سيارة, فقتل أحد أولاده, وأصيب هو بالشلل, الذي كان يتمناه لكل سجنائه, وجلس على كرسي العجزة المقعدين لمدة سنتين ثم رحل إلى سقر بإذن الله, وبئس المصير.., وقد قرأتُ نعوته في الجريدة الرسمية, فسبحان المنتقم الجبار!

لجنة أمنية في تدمر

في أواخر 1995 حضرت لجنة إلى تدمر وبدؤوا يقابلون السجناء, كانت لجنة من كبار ضباط المخابرات, وكان بينهم هشام اختيار الذي قضى مقتولا غير مأسوف عليه في تفجير خلية الأزمة مع آصف شوكت.. كانوا يقابلوننا أفرادا, وكانت المقابلات هادئة إجمالا, ويسألوننا بعض الأسئلة أقرب إلى الدردشة والتسلية والسخرية, مثل هل أنت نادم على ما فعلت؟.. وما هي مخططاتك إذا خرجت من السجن وهل تتعاون معنا؟

لم نعرف ماذا وراء هذه المقابلات, وما الداعي الذي دفعهم للتفكير فينا, ولماذا تذكّرونا بعد 15 سنة!

بعض المساجين كان حظهم عاثرا في هذه المقابلات.

قالوا لأحدهم "نريدك أن تظهر على شاشة التلفاز, وتصرح بأنك نادم على ما فعلت".

خاف المسكين وقال "لا, لا أظهر على التلفزيون".. فلبث في السجن بضع سنين.

وآخر قالوا له: "مارأيك أن تتعاون معنا بعد خروجك من السجن؟" – أي أن يكون مخبرا –. فأجابهم الرجل ببساطة وعفوية: "ياسيدي, بعد هذه الشَيبة تريدني أن أتعاون معك!".

فاستشاط المحقق غضبا, وما كان منه إلا أن خلع حذائه وانقض على الرجل يضربه على رأسه بحذائه.

وآخر قالوا له: "ألست نادما ياهذا؟".

فقال: "يا سيدي إنما كنتُ أجوّدُ القرآن".

فقال له المحقق: "خلّيك في المهجع عم تجود".

أما أنا فسألني أحدهم "ما رأيك بحوادث القتل التي قامت بها عصابات الإخوان؟".

قلت له, وأنا أظن أني أعطيه الجواب الذي سيعجبه: "إنها خطأ يا سيدي".

هاج في وجهي, وفاجأني في ردة فعله, وقال منفعلا والشرر يتطاير من عينيه: "خطأ.. فقط خطأ.. تقول عن الإجرام خطأ؟ هل هذا جوابك؟".

فاستدركتُ الموقف بسرعة ورحت أكيل الشتائم والتهم على عصابة الإخوان, المجرمين قتلة الأبرياء! ..وأحمـَدُ الله الذي ألهمني سرعة البديهة وكفاني شره ويسّر أمري, أما من كان حظه عاثرا في المقابلة فقد امتدت به سنوات السجن إلى عشرين سنة أو أكثر, وبعضهم لم يخرج إلا بعد موت المقبور.

نقلـُنا إلى دمشق

بعد أيام بدأوا يذيعون الأسماء, وأركبونا هذه المرة في باصات عادية (بدل الشاحنات المغلقة), فاستبشرنا خيرا.

أخيرا نخرج من غيابت الجب, ونغادر هذا المكان المقيت.. نظرتُ إلى أسوار السجن وتأملتُ جدرانـَه التي تخبـِّئ وراءها آلاف القصص والأهوال, وحكاياتٍ لا تنتهي من العذاب والقتل والحقد..

هنا أمضيتُ خمسة عشر عاما, هي زهرة شبابي.. دخلتُ من هذا الباب وكان عمري 23 سنة والآن أخرج منه وعمري 38 سنة.. هنا ضاعت كلُّ تلك السنوات.. تحت الكرباج والجلد والسياط.. والجوع والإهانات.. والرعب والمرض..

هنا توفي أخي.. وهنا استشهد الآلاف على حبال المشانق, في صمت وخفاء.. مجازرُ لمدة سنوات تحت أجنحة الظلام..

هنا اغتيلَ العلمُ والأخلاق والفضيلة, هنا يحكم الحذاء العسكري, ولا اعتبار لأي شيء آخر.

ياترى هل يعلم أحد ماذا كان يجري وراء هذه الجدران؟.. خواطرُ وخواطر..

كانت الساعة التي أعطاني إياها أبي في يدي.

أقبل إليَّ أحد أفراد الدورية وقال لي "أنت أسامة؟". قلت "نعم". فانصرف برهة من الوقت ثم عاد وقال "أعطني الساعة".

كانت الساعة صناعة سويسرية, قديمة ولكنها محببة من قلبي, وذكرى من أبي, أعطيتـُهُ الساعة, واستغربت لماذا سألني عن اسمي!

بعد قليل رجع إلي وقال: "رئيس الدورية يريد أن يحتفظ بالساعة, مارأيُك؟".

كانت الخيارات أمامي إما أن أوافق وإما أن أوافق.

قلت له: "طبعا موافق"!

استنتجتُ أنهم كانوا واقفين يراقبوننا أثناء قراءة أسمائنا وصعودِنا في الباصات, فرأوا الساعة في يدي فحفظوا اسمي لكي يسرقوها مني, وجاؤوا بعد برهة من الوقت وافتعلوا هذه المسرحية ليسرقوا الساعة.

وصلنا فرع المخابرات في دمشق, وأنزلونا إلى القبو, وفي الفرع جرت مقابلات أخرى شبيهة بتلك التي جرت في تدمر, أعيد على أثرها عدد منا إلى سجن تدمر أو سجن صيدنايا, لسوء المقابلة.

بعد أيام حصل الذي انتظرناه خمسة عشر عاما, فأذيع اسم حوالي عشرين شخصا وأخلي سبيلهم, ولم يكن إخلاء السبيل جماعيا.

في اليوم الثاني تكرر الامر, ثم الثالث فالرابع واستمر المسلسل حوالي شهرا.. كنا فرحين ننتظر الدور, المهم أن الناس يخرجون من قبورهم.

استنتجنا أنهم لا يريدون إطلاق سراحنا دفعة واحدة حتى لاتحدث ضجة في البلد, أو لأمر آخر لم نعلمه!

فجأة توقفت سلسلة الإفراجات, ظننا أن الأمر مؤقت, ولكن هذا الانقطاع استمر أكثر من شهر.

بدأت تراودنا الأفكار السيئة, وأن أمرا ما حصل في البلد, جعلهم يتراجعون عن إطلاق سراحنا, ولربما غيروا رأيهم وسوف يعيدوننا إلى سجن تدمر, ويا للكارثة!

الحريـة

بفضل الله انزاحت تلك الغمامة وعاد النهر إلى مجراه, وتتابعت الإفراجات إلى أن جاء دوري في كانون أول 1995, قبل إتمام خمسة عشر عاما على سجني بشهر واحد.

لم أصدق ذلك اليوم.. يوم الحرية, ما أغلاها من كلمة ومأحلاها.

كنت أسير في الطريق وأتساءل هل أنا في حلم.. هل أصدق أني أرى الدنيا والناس من جديد, هل أنا طليق حر في هذه الدنيا, كنتُ أشعر أني خرجتُ من القبر.. وأتأمل في وجوه الناس السائرين في الطرقات, كلٌ يمشي إلى حاجته وأمره.. كنت أتساءل هل يحسُّ بي أحد, هل لفتُّ نظر أحد في الطريق؟ هل يعلم أحد ما عانيتُهُ لمدة خمسة عشر عاما؟.. هل أنا من أصحاب الكهف الذين عادوا إلى الحياة بعد سبات طويل؟ ولكن لم يلتفت إلي أحد!

أوهكذا كان الناس يمشون في الطرقات, خلال خمسة عشر عاما حين كنا نواجه فيها الأهوال والموت بأشرس أشكاله.. وإخواننا يعلقون على المشانق, ولم يشعر أو يحس بنا أحد.. نعم.. الناس منشغلون بتفاهات الدنيا ونحن نموت في صمت!

أوهكذا مضت علينا خمسة عشر عاما وكأن شيئا لم يكن!

نعم خرجتُ إلى الدنيا بعد أن يئستُ وظننت أن نهايتي ستكون هناك بين جدران السجن, وشاهدت الموتَ بعينيّ العديد والعديد من المرات, ووصلتُ إلى حبل المشنقة, حتى لم يبقَ بيني وبينها إلا ذراع, ولكن القدر لم يأذن وكان في الأجل بقية..

كان الأمر لي أشبه بالمعجزة فهي حياة جديدة, وخرجت لأعيش عمرا جديدا, وكان هذا من فضل الله أن أعطاني سنوات ما كنت أحسب أن أحياها.. وأعادني إلى الحياة, كما أعاد يونس إلى الدنيا من بطن الحوت (ولكن حوتنا كان أشد ضراوة) لألتقيَ والديَّ, وأكملَ دراستي, وأتزوج, ويرزقَني الله البنين والبنات, وأمضي في طريقي.. أحمل جرحا قديما لا يلتئم, وأحمل ذكرى لا تنسى, عن نجم شاركني طفولتي وشبابي وأحلامي ومحنتي, وكان فارسا بطلا من أبطال الإسلام, اقتفى آثار خطى الشهداء ابتداءً من سيد الشهداء حمزة ومرورا بحمزة الخطيب وغياث مطر وطارق الأسود والكثيرين ممن سطروا ولايزالون يسطرون أعظم ملاحم البطولة والفداء, ورفعوا راية الإسلام عزيزة على مرّ الدهور, وستبقى كذلك حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

وإن هذا الدين محفوظ منصور بوعد الله, لم يفلح أعداءُ الله على مدى أربعة عشر قرنا, بحروبهم الشرسة الحاقدة من النيل منه, وستبقى عربة الإيمان ماضية إلى يوم القيامة, سواءا كنا فيها أو لم نكن, فطوبى لمن ساهم في دفعها ومضائها وشدَّ في مسارها, والخيبة والخسارة لمن توانى وتخاذل, والويل والثبور لمن حاول أن يتصدى لها, فإن كنا مع الذين اعتصموا في عربة الإيمان فهو فوز لنا وأيما فوز.

"يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متمُّ نورِه ولو كره الكافرون".

كتب أبي رحمه الله عن ذلك اليوم:

يوم الأربعاء 13 كانون أول عام 1995 كان يوم الفرحة الكبرى يوم أطلق سراح ابننا الحبيب أسامة, هذا اليوم كان حلما وبفضل الله صار حقيقة.

أول ما توجه إلى بيت خالته لأنه لم يكن يعرف مكان إقامتنا الحالي, وبعد أن أصلح قليلا من حالِهِ اصطحبته خالته وزوجها وأتوا به إلى البيت, كان لقاءً فوق الوصف... لقاءً بعد خمسة عشر عاما من الانتظار.. كان يوم فرحة, ولكنّ الفرحة جريحة لأننا لم نر حسام.

كنا لانزال نعيش بالأمل, كان لدي إحساس داخلي بأن أمرا سيئا وقع للحبيب حسام - النمر كما سموه – واحرَّ قلباه.. كان الكثير من الأصدقاء ممن حولنا يعرفون الحقيقة, ومن حسن الحظ أنهم كانوا يكتمون.

لم أكن أجرؤ على سؤال أسامة عن إخيه خوفا من الجواب الذي لم أكن أقوى على سماعه, إلى أن جاء اليوم بعد شهور من تحرر أسامة فسألته: هل من أمل في أن أرى أخاك حسام؟ فكر مليا وقال: لا بابا.. وغرقتُ وأسامة في شلال من الدموع.

تعليق من أسامة: مازلت أذكر ذلك الموقف وكان من أقساها على قلبي.. كنت أتهيأ لهذا اليوم منذ اثني عشر عاما, منذ استشهاد حسام عام 1983, وكنت أعلم أني سوف أُسأل هذا السؤال الصعب ولا أدري كيف سأجيب عليه.

بعد عودتي ولأشهر عدة لم نذكر اسم حسام رحمه الله, لاأنا ولا والديَّ, وكنا نتجنب هذا الحديث, خوفا منا كلٌّ على شعور الآخر.. إلى يوم جاءني فيه أبي ,وكان التوتر باديا على وجهه, وغريبا في مشيته وحركته, وكأنه قد استجمع قواه لهذا السؤال وقال بصيغة شديدة الاختصار وكأنه يتهيأ لمصيبة عظيمة:

هل أقرأ القرآن لأخيك حسام؟

لم أستطع الإجابة فورا, تصورت أخي حسام مع الشهداء, ولكنه كان قاسيا عليَّ أن أقول الحقيقة المرّة إلى أبي الحبيب, ولكنه أمر لابد منه وقضاء الله قد وقع, وكان يؤلمني أن أرى أمي تعيش مع الأوهام والانتظار الزائف, والناس يُمنّـُونها بالأمل المقتول, ولكني فضّـلت أن تبقى على ذلك لأني أعرف يقينا أنها لن تحتمل الجواب..

بعد إطراقة حزينة وتفكير قصير قلت: نعم يا أبي اقرأ له القرآن..

هزّ برأسه وكأنه يعلم الجواب سلفا, وانصرف فورا بدون أي تعليق أو مزيد من الأسئلة.. ولم نكن نستطيع التطرق لذكر أخي بعد ذلك اليوم.

وتشاء الأقدار أن تدور عجلة الزمان, وينتفض شعبنا العظيم في وجه الطغاة, ويُطلق ثورة لم يشهد لها التاريخ مثيلا في عظم التضحيات والصبر والثبات, ونعود نعيش فصول الرواية من جديد, فصول القتل والترويع والاعتقالات, ونشهدُ حربا نصيريةً مجوسية قذرة, مجردةً من أدنى معايير الإنسانية, جاوزت بكثير همجية المغول ومجازر هتلر وجنون نيرون.

هؤلاء أبطال سوريا باعوا أرواحهم رخيصة لله, حتى يعيدوا الحرية لوطنهم الذي سرقت منه كرامته وهويته وإرادته على مدى خمسين عاما, تلك الحرية التي تغنى بها الناس منذ آلاف السنين, ومات من أجلها الملايين.

أيا دارَ أحبابي ومهدَ ولادتـــــي ومهبِطَ أحلامي, لقد عاد أسراهـا

أتيتُ إليكِ اليوم أعصِـــــفُ قوةً أُجدِّدُ أسيافي, وأمضي بأمضـاهـا

لئنْ رأيتِ الشيبَ طاف بهامـتـــي فقلبي لأُسْدِ الموت ما هاب لـُقياها

سأمضي بعون الله بحرَ عواصفٍ تـَهيـجُ بموج الثأر.. تأتي بأعتاهـــا

تمزقُ ذئب الكفر.. تطمِسُ وجهَـه ويُذبـح بالكـف الـتـي كان أدماهـــا

فيا دعوةَ الإيمـــان حيِّـي جهـادنا وحيِّـي أسود الله, حيّـــي سراياهـا

فإن كان نصرُ الله فهو رجاؤنـــا وهذي وجوهُ النور بانـت ثـنـاياهـا

وإن كانت الأخرى فتـلـك شـهادةٌ وروحاً لدين الله بالخـــلد بعنـاهـــا

ثمت بعون الله